

المحاضرات والمحاورات

السيوطي


المحاضرات والمحاورات
السيوطي



المحاضرات والمحاورات

السيوطي

سيوطي، 1445–1505.

كتاب المحاضرات والمحاورات/ تأليف: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي؛ إعداد: خليل الشيخ.– ط. 1.– أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2015.

ص.؛ سم. (سلسلة عيون النثر العربي القديم)

1. الشعر العربي – الأعمال المبكرة حتى 1800.

أ. شيخ، خليل. ب. العنوان.

إعداد:

د. خليل الشيخ

خطوط:

الفنان التشكيلي الخطاط محمد مندي





الطبعة الأولى 1436هـ 2015م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@tcaabudhabi.ae
www.tcaabudhabi.ae

مقدِّمة

كتاب المحاضرات والمحاورات "من كُتب جلال الدِّين السيوطي (911) هـ وهو أحد أعلام القرن العاشر الهجري، وواحد من كبار المؤلّفين الموسوعيين، الذين عُرفوا بسعة الاطِّلاع وكثرة الجمع والتأليف، وإنْ ظلَّ الرجل شخصيّة خلافيّة عند معاصريه إلى الحدّ الذي اضطر فيه إلى اعتزال الحياة العامّة والانصراف للعبادة والتأليف.

كان السيوطي غزير الإنتاج، متنوّع التأليف، جمّاعًا، ألّف في كلّ الفنون، وكتبه تتفاوت بين المجلّدات الكبيرة والرسائل الصغيرة، فقد كتب في علوم القرآن والحديث والفقه وعلوم اللغة العربية والبيان والبديع والتراجم والطبقات والتصوّف وغير ذلك من الأبواب، وقد اختُلِف في عدد مؤلفاته، حيث يُذكَر أنّها تبلغ 350 كتابًا، وإنْ ذَكَر بعضهم أنّها تربو على ألف كتاب.

وبصرف النَّظر عن مدى المبالغة في الأعداد، فإنّ هذا يشير إلى نشاطه الجمّ في التأليف، مثلما يشير إلى نوعيّة الكتب التي كان السيوطي يؤلِّفها، فهي قائمة على الجمع والحشد في المقام الأول .وهو أمرٌ لا يقلّل من قيمة السيوطي البتَّة، فقد كان عصره عصر الجمع والتبويب .وإنْ كان معاصروه قد اتّهموه بالسَّرقة، كما فعل السخاوي المحدِّث صاحب كتاب" فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث."

إنّ ما يُضفي أهميَّة على مؤلّفات السيوطي، أنّها تنتمي إلى زمن الغزو المغولي، وهو الزمن الذي عرف خَرَاب المُدن وإحراق الكتب وتدمير المكتبات، فكان جهد السيوطي في النقل عن كثير من المخطوطات التي لم تصل إلينا، أمرًا مقدَّرًا .ولم يكن السيوطي وحيدًا في هذا الميدان، فثمّة

علماء آخرون أسهموا في هذا الضَّرْب من التأليف الموسوعي، التجميعي من أمثال النويري في "نهاية الأرب "والقلقشندي في" صبح الأعشى في صناعة الإنشا "وغيرهم كثير.

ينتمي كتاب" المحاضرات والمحاورات "إلى نوعيّة من الكتب عرفها التراث العربي، تقوم على أمشاج متنوّعة من الفنون والمعارف، فتجدها تجمع بين الآية القرآنية والحديث النبوي وأبيات الشِّعر اللافتة والنوادر والحكايات واللطائف والخبر التاريخي، ويمكن أنْ نشير هنا إلى أعمال سابقة على السيوطي، مثل" البصائر والذخائر "لأبي حيَّان التوحيدي وإلى أعمال تنتمي إلى عصر السيوطي كـ" المُستطرَف في كلّ فنّ مُستَظْرَف "للإبشيهي وكتاب" الكشكول "للعاملي.

سَمّى السيوطي كتابه" المحاضرات والمحاورات "وقد نقل في مقدِّمة كتابه عن الزمخشري قوله:

"اعلمْ أنَّ أصناف العلوم الأدبيّة ترتقي إلى اثني عشر صِنفاً :علم مَتْن اللغة، وعلم الأبنية، وعلم الاشتقاق، وعلم الإعراب، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم العَروض، وعلم القوافي وإنشاء النثر، وقَرْض الشِّعر، وعلم الكتابة، وعلم المحاضرات ."والمقصود بالمحاضرة في هذا السياق :هو استعمال كلام البلغاء في أثناء الكلام في محلّ مناسب له على سبيل الحكاية، لتكوين مَلَكة يراد بها الاحتراز من الوقوع في الخطأ.

أشار السيوطي في مُفتَتَح كتابه معرِّفًا به فقال:

"هذا مجموع حسن انتخبتُ فيه ما رقَّ وراق من ثِمار الأوراق، والتقطتُ فيه من دُرَر الكُتب الجواهر، ومن شجر الحدائق الأزاهر، ممَّا يصلح لمحاضرة الجليس ومشاهدة الأنيس، وسمَّيته المحاضرات والمحاورات، والله المستعان وعليه التكلان."

ومن الملاحظ أنّ السيوطي لم يرتّب الكِتاب بناء على موضوعات بعينها يقوم بإعدادها بالتفتيش عن شواهدها، بل كان ينقل عن الكتب موضوعات يستحسنها، لذا فإنّ عناوين مثل "منتخبات من كتاب "... أو" مُستحسنات من كتاب "... أو" منتقى من المُصنَّف "... كانت تتكرَّر في الكِتاب .وهو يختلف عن مختارات أخرى مثل" التذكرة الحمدونية "و"محاضرات الراغب الأصفهاني "التي صُنِّفت مختاراتها إلى أبواب محدّدة .وهذا اللون من المختارات مريح للمؤلِّف،

وللقارئ .فقد اعتاد السيوطي أنْ ينتقل من كتاب إلى آخر بعد أنْ يفرغ منه من غير أنْ يراعي الانسجام بين الموضوعات المنقولة.

أمّا اختيارات السيوطي فمتنوّعة وهي تجمع بين العلوم والثقافة، وفيها الخُطبة والرسالة والمفاخرة والمَقَامة والرسالة، وفيها النوادر والطرائف والتعازي والتهاني كما فيها التراجم والأخبار العامَّة.

إنّ السيوطي في تأليفه مثل هذا النوع من الكتب، كان يرغب في نقل العِلم إلى أهله وعدم احتكاره .وهذا ما يفسِّر كثرة تآليفه وتنوّع مجالاتها وتعدّد مستوياتها .ويبدو أنّ خصومته مع علماء عصره زادت من عُزلته وجعلتُه ينكبُّ على هذا التأليف الذي كان يُشكّل لونًا من تحقيق الذات ومن الردّ على تحدّي أولئك العلماء.

لقد قامت مؤلفات السيوطي، في المجمل، على تلخيص كتب الآخرين والانتخاب منها، وعلى ذِكْر الأقوال المختلفة في الموضوع الواحد، وترجيحه لأحدها، وهو ما يدلّ على سعة معرفته وتبحّره في كثير من العلوم والمعارف.

ماهيَّة الكِتاب

بسم الله الرحمن الرحيم، وهو حسبي وكفى، وصلى الله على محمد، وعلى آله وأصحابه وسلَّم، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى :هذا مجموع حسن انتخبت فيه ما رقَّ وراق من ثِمار الأوراق، والتقطتُ فيه من دُرَر الكُتب الجواهر، ومن شجر الحدائق الأزاهر، ممَّا يصلح لمحاضرة الجليس ومشاهدة الأنيس، وسمَّيته المحاضرات والمحاورات، والله المستعان وعليه التكلان.

قال الزمخشري في القسطاس :أصناف العلوم الأدبيَّة اثنا عشر صنفًا :علم متن اللغة، وعلم الأبنية، وعلم الاشتقاق، وعلم الإعراب، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم العَروض، وعلم القوافي وإنشاء النثر، وقَرْض الشِّعر، وعلم الكتابة، وعلم المحاضرات .قال غيره :ومراده بالمحاضرات ما تُحاضِر به صاحبك من نَظْم أو نثر، أو حديث، أو نادرة، أو مَثَل سائر .وفي الكامل للمبرّد :من أمثال العرب :خير العلم ما حُوضر به، يقول :ما حُفظ فكان للمذاكرة.

من إنشاء الشهاب المراغي[1]
في ذكر العلم

أمَّا بعد، فانَّ الله مؤيِّدِ أهل الآداب بالتعظيم والتبجيل وفصل الخطاب، ومُطلِعُ نجوم سعودهم في سماء كلّ جيل على مرّ السنين والأحقاب، وقد اخترتك بالحكمة والتفضيل للوقوف على هذا الكتاب، وأخبرتك بما جرى بيني وبين الدنيا من أقاويل وردّ الجواب، وذلك أنّي أجريت في بعض الأيام ذكر زخارفها والأباطيل بين خواص الأصحاب، وتذاكرنا كم لها من قتيل وصريع بسهام شهواتها ومصاب وسليم، وجُلنا في ميادين مخادعتها بخيل التعجب أبعد مجال، وولجنا في أبواب مختلفة من مكرها والاحتيال، وكيف تتزيّن لخطَّابها بجلابيب جمال المحال، وتجرر ذيول التذلّل والاختيال، تلاعب من بنيها الأطفال، وتلهيهم بخشاخيش[2] الانتقال من حال إلى حال، وتجذب بأَزِمَّة عقول الشباب والكهول من الرجال، إلى خواص غمرات الأهوال، لبلوغ الكواذب من الآمال، وتطمع الشيب من فسح الآجال، تمطيهم بعجزهم ركائب الحرص، فتراهم بين شدّ دائم وترحال.

ولم تزل كذلك حتّى آذن النهار بالزوال، وأتى أتيُّ الليل من جميع الجهات، وسال ومال بنا ركب السهر إلى معرس الهجوع، وهمَّ كلّ منَّا إلى منزله بالرجوع، فلمّا أويت إلى مضجعي، وطفقت سوام العيون في رياض الغمض ترتعي؛ هتف بي هاتفها من وراء حجاب، وخاطبتني مخاطبة الكواعب الأتراب، وأفحمتني من البلاغة بما يليق من الجواب، وأدارت عليَّ حُميَّ العتاب، بكؤوس من التلطّف وأكواب، ثم قالت: يا هذا، أتتعرض لشتمي في الملا، وتتودّد إليَّ في الخلا، وتذمّ من تيمك هواها، وتسبّ من سباك على الوصف حسن مرآها؟! قلبك بفنون جمالها مفتون، وجنانك بليلى

حبّها مجنون، ما هذا من الإنصاف، ولا يُعَدُّ من المحبّين من اتَّصف بهذا الاتصاف، أما أنت المعرِّض في فريضتك بذكري، أما أنت المعرض خدم جوارحك لخدمة قهري؟ أما أنت المتألّم من صدودي وهجري؟ أما أنت المكنِّي بأسماء مقصودك اسمي؟ أما أنت المتذلل لأوامري وحكمي؟ ألستَ القائل والعاذل بسمعك عن طريق العاذل:

أيجملُ بي يا جُمْلُ طوعُ العواذل

وحبّكِ جارٍ في جميعِ مفاصلي

ولو ملتُ يومًا عن هواك تجردتْ

سيوفُ صبابات أصبنَ مقاتلي

أذودُ الهوى عنّي وقلبي يُطيعُهُ

فما حيلتي يا جُمْلُ والقلبُ خاذلي

وأحملُ في حُبَّيْكِ ما لا أطيقه

وما فزتُ يومًا في رضاكِ بطائلِ

ومَنْ حكَّمتْ فيه الغَواني فإنَّه

جديرٌ بحكمٍ جائرٍ غيرِ عادلِ[3]

ومَنْ ثأره عند الذوائبِ والطُّلى

فلا يرتجي نصر الظُّبا والذوابلِ

ومَنْ راح في أسرِ اللواحظِ لم يزل

طليقَ جفونٍ بالدموعِ الهواملِ

ولا تحسبي يا جُمْلُ أنِّيَ عاشقٌ

يزولُ غرامي فيكمُ بالتواصلِ

ولكنَّني أزدادُ بالقربِ والنوى

هُيامًا وداءُ الحبِّ ليس بزائلِ

حرامٌ على قلبي السلوُّ لأنَّني

أراهُ بعيداً عن يدِ المتناولِ

وبيت كثير قلّ مَن يهتدي به

وغير عجيب أنْ يفوه بباطلِ

أيعشقُ مَنْ ملكَ الهوى رِقَّ عاشقٍ

مشاعٍ لأدواءِ الغرام القواتلِ

لسُهْدٍ ووجدٍ واكتئابٍ ولوعةٍ

وفرطِ أسًى بادٍ وتعنيفِ عاذلِ

لقد فازَ مَن حاز الغرام فؤادُهُ

لقد حاز أسمى رتبة للفضائلِ

وما العيش إلَّا صبوةٌ وصبابةٌ

ومنزلةُ العُشَّاقِ أسمى المنازلِ

فلمّا نفثتْ فيَّ من سحرِ لفظها الحلال، وملكتْ لُبّي بحلاوة المقال، جاريتها في الكلام، وناضلتها بما فضل في كنانة فكري من السهام. ثمّ قلت: قد كان ذلك أيام شبابي، ونشأتي في صهباء التصابي، والآن فقد نهاني رقيبُ المشيب عن مواصلة الحبيب، أما رأت عيناك يققَ لمَّتي[4]، وضعف حركاتي وقوَّتي، وفتور بوادر همَّتي، أما سمعت أُذناك بديع نسيبي في وصف مشيبي:

كبرتُ ولم أشعر وشابت مفارقي

وفارقتُ لذَّاتي وهنَّ عجائزُ

ولانت قناتي بعد طولِ صلابةٍ

وليس لها يومًا سوى الدهرِ غامزُ

فلو قيل لي يا شيخُ قلتُ لعلّهُ

سوايَ الذي يُدعَى وقلبي قافزُ

وكم رُضْتُ خيلًا للأماني سوابقًا

لها من تصاريفِ التصابي مهامِزُ[5]

وجلتُ بميدانِ الشباب إلى مدى

لهُ الشيبُ عن نهجِ الغَوايةِ حاجزُ

وبارزتُ أيامي ببطشٍ وإنَّها

تشير إليَّ الآن أينَ المبارزُ

وجدَّت بيَ الآمالُ حتَّى كأنَّها

ركابٌ وحرصي تحتهنَّ مفاوزُ

وما ذاكَ من جهلٍ ولا من سفاهةٍ

ولكنَّهُ حكمٌ على الشيبِ جائزُ

تفرَّقت الآراءُ والحرصُ واحدٌ

وكلُّ امرئٍ عن باحة السرّ عاجزُ

وما العيش إلَّا بالحظوظ فكادحٌ

شقيٌّ وراضٍ بالزهادةِ فائزُ

وعزَّ جهولٌ كالبهيمة هاملٌ

وخيرُ خبيرٍ للفضائلِ حائزُ

وفي الشهبِ آياتٌ فجارٍ إلى مدى

وللبعضِ منها في البروجِ مراكزُ

فقالت: نظمك صحيح، ولسان بيانك فصيح، ولكن تملقك بالمقال قبيح، أما علمت أنَّ الشِّيب والشبان، والكهول والصبيان، ما منهم إلّا مَن ورد ماء مديَن محبتي، وقرت عمرةُ عمرهِ من ميقات محجَّتي، وهجر أسرته بالمسارعة إلى هجرتي، ولو كشفت التراب عمَّن درج من الأتراب، لأخبرك لسان حالهم بما يغنيك عن سؤالهم، إنَّ الجميع غدوا إلى جنابي وراحوا، ونصبوا حبائل نصبهم طلبًا لمواصلتي وما استراحوا، وأعلنوا بسرِّ هواي حين لاح لهم عَلَم زخارفي وباحوا، وقضوا نَحْبَهم، وأعينهم تفيض من الدمع حسرةً عليَّ، وتلهّفًا على ما خلفوه لديَّ، ولكن الأجل محتوم، والرزق مقسوم، الطفل يتلطّف في بكائه على فطام لَبَانه، واليافع يتأسَّف على مفارقة معاشريه وأقرانه، والكهل يتلهَّف على ما خلف لبنيه وعشيرته، والشيخ يندب زمان صبوته وشبيبته، والكلّ منهم كالنائم وإنْ كان يقظان، أو كالواقف في الماء وهو عطشان، ومثلي مضروب في القرآن، متلو في كلّ وقت وأوان: {إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ} [البقرة: 249]، وتمام الآية معناه: قد اشتهر، والآن فقد حذرتك سطوتي، وخوفتك في غيرك بطشتي، فاجعل نصب عينك وصيَّتي، وكنْ من مصائد مصايبي على حذر، وفرَّ إلى الله ما أمكن المفرّ، وإذا وردت موارد اللذَّات، ومناهل الشهوات، فاحسب المصدر، والأمل يطول، والزمان عثور عجول، وعثار الليالي والأيام تدرُّ بحليب التبعات، والأنام على التمادي والدوام، والسعيد من الأنام من عوَّد نفسه الزهد في هذا الحطام، ولجمها بلجام الصمت والصيام والسلام.

مُستحسنات من طبقات

ابن سعد

ما يُعلم موضع قبر نبيّ من الأنبياء إلّا ثلاثة: قبر إسماعيل، فإنَّه تحت الميزاب بين الركن والبيت، وقبر هود فإنَّه في حقف من الرمل تحت جبل من جبال اليمن عليه شجرة تندي، وموضعه أشدّ الأرض حرًّا، وقبر رسول الله ﷺ، فإنّ هذه قبورهم تُحقَّق.

كان النبي ﷺ إذا انتسب لم يجاوز في نسبته معد بن عدنان بن أدد، ثمّ يمسك، ويقول: كذب النسَّابون، قال تعالى: {وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا} [الفرقان: 38].

سأل عبد الملك بن مروان محمد بن جبير: متى سُمِّيَتْ قريشٌ قريشًا؟ قال: حين اجتمعت إلى الحَرَم من تفرّقها، وذلك التجمّع التقرُّش. فقال عبد الملك: ما سمعتُ هذا، ولكنْ سمعتُ أنَّ قُصَيًّا كان يُقالُ له القرشي، ولم تسمِّ قريش قبله.

قال الكلبي: ولد عبد المطلب اثني عشر رجلًا وست نسوة: الحارث وهو أكبر ولده، وبه يُكَنَّى، مات في حياة أبيه، وعبد الله والد رسول الله ﷺ، والزُّبير، وكان شاعرًا شريفًا، وإليه أوصى عبد المطلب، وأبو طالب، واسمه عبد مناف، وعبد الكعبة، مات ولم يُعْقِب، وأم حكيم، وهي البيضاء، وعاتكة، والعاتكة في كلام العرب الطاهرة، وبَرَّة، وأميمة، وأروى، وحمزة، وهو أسد الله وأسد رسوله، والمقوِّم، وحَجْل، وهو المغيرة، وصفية، والعباس، وضرار، وكان من فتيان قريش جمالًا وسخاء، ومات أيام أُوحي إلى النبي ﷺ، ولا عقِبَ له، وقثم، لا عَقِب له، وأبو لهب، واسمه عبد العُزَّى، ويُكنَّى أبا عتبة، كنَّاه عبد المطلب أبا لهب لحُسْنه وجماله، والغيداق، واسمه مصعب. قال الكلبي: فلم يكن في العرب بنو أب مثل بني عبد المطلب أشرف منهم ولا أجسم، شَمّ العَرانين[6]، تشرب أنوفهم قبل شفاههم.

وأُخرج عن عمرو بن سعيد أنَّ أبا طالب قال: كنت بذي المجاز[7] مع ابن أخي، يعني النبي ﷺ، فأدركني العطش، فشكوتُ إليه، فقلت: يا ابن أخي قد عطشت، وما قلت له ذلك إلَّا وأنا أرى أنَّ عنده شيئًا إلَّا الجزع، قال: فثنى وركه ثم نزل فقال: يا عمّ أعطشت؟. قلت: نعم، قال: فأهوى بعقبه إلى الأرض فإذا بالماء، فقال: اشرب يا عم، فشربت.

وأُخرج عن الزهري قال: قال رسول الله ﷺ: "لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كلّ قبطي". وأخرج عن مكحول، أنّ رسول الله ﷺ قال في ابنه إبراهيم لمَّا مات: "لو عاش ما رَقَّ له خال".

وأُخرج عن محمد بن كعب القرظي قال: ما خالف نبيٌّ نبيًا قطّ في قِبْلَةٍ ولا في سُنَّةٍ، إلّا أن رسول الله ﷺ استقبل بيت المقدس من حيث قَدِم المدينة ستّة عشر شهراً، ثم قرأ: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} [الشورى: 13].

وأُخرج عن أبي سعيد الخدري قال: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين، يضحي في كلّ عام.

وأُخرج عن ابن عمر أنّه سُئِل عن الأضحية فقال: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة عشر سنين لا يدع الأضحى.

وأخرج عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يعمل عمل البيت، وأكثر ما يعمل الخياطة.

وأُخرج عن أنس بن مالك قال: إذا كان عندنا دُباء[8] آثرنا به رسول الله ﷺ.

وأُخرج عن علي بن الأقمر قال: كان النبي ﷺ يأكل تمرًا، فإذا مرَّ بحشفة أمسكها في يده. فقال له قائل: أعطني هذه التي بقيت. قال: (إنّي لست أرضى لكم ما أسخطه لنفسي).

وأُخرج عن محمد بن جعفر: أنَّ النبي ﷺ اعتمر من الجِعْرانة[9]، وقال: اعتمر منها سبعون نبيًّا.

وأُخرج عن قتادة قال: قلت لأنس بن مالك: كم اعتمر رسول الله ﷺ؟ قال: أربعًا، عُمْرته التي صدَّه عنها المشركون عن البيت من الحديبية في ذي القعدة، وعُمْرته أيضًا من العام المقبل

حين صالحوه في ذي القعدة، وعُمْرته حين قسَّم غنيمة حنين من الجعرانة في ذي القعدة مع حجّته.

وأُخرج عن الشعبي قال: لم يعتمر رسول الله ﷺ عُمْرة إلَّا في ذي القعدة.

وأُخرج عن ابن أبي مليكة قال: اعتمر النبي ﷺ أربع عُمَر، كلّها في ذي القعدة.

وأُخرج عن معاوية بن أبي سفيان: أنَّ الدنيا لم تُرِد أبا بكر ولم يُرِدها، وأرادت ابن الخطاب ولم يُرِدها.

وأُخرج عن الحارث بن سويد أنَّ رجلًا من أهل الكوفة وشى بعمَّار بن ياسر إلى عمر رضي الله عنه، فقال له عمّار: إنْ كنتَ كاذبًا فأكثر الله مالك وولدك، وجعلك موطَّأ العقبين.

وأُخرج عن عمر بن الخطاب قال: إنّ في العزلة لراحة من خلاط السوء. وأُخرج عن عمر قال: خذوا بحظكم من العُزلة.

وأُخرج عن عمر قال: كونوا أوعية الكِتاب، وينابيع العلم، واسألوا الله رزق يوم بيوم، ولا يضرّكم أنْ لا يكثر لكم.

وأُخرج عن أبي سعيد الأسدي فقال: رأيتُ عليَّ بن أبيّ طالب أتى السوق فقال: مَن عنده قميص صالح بثلاثة دراهم؟ فقال رجل: عندي، فجاء به. قال: فلعلّه خير من ذاك. قال: لا ذاك ثمنه، قال فرأيتُ عليًّا يفرط رباط الدراهم من ثوبه فأعطاه، فلبسه فإذا هو يفضُل على أطراف أصابعه، فأمر فقطع.

وأُخرج عن أبي الدرداء قال: إنّي لآمركم بأمر وما أفعله، ولكنّي أرجو أنْ أؤْجَر عليه. وأُخرج عن أبي الدرداء قال: لو تعلمون ما أنتم راؤون بعد الموت، ما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلّون فيه، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم، وتبكون على أنفسكم، ولوددت أنّي شجرة تعضد ثم تؤكل.

وأُخرج عن أبي بكر الصديق أنّه مرَّ به طائر، فقال: طوباك يا طير، تأكل من الثمر، وتستظل بالشجر، وترجع إلى غير حساب.

وأُخرج عن عبد الله بن مسعود، قال: كانت الأنبياء يحلبون الشاء، ويركبون الحمير، ويلبسون الصوف.

وأُخرج عن خيثمة[10] قال: تقول الملائكة: يا رب، عبدك المؤمن تزوي عنه الدنيا، وتعرِّضه للبلاء. فيقول الله تبارك وتعالى للملائكة: اكشفوا لهم عن ثوابه، فإذا رأوا ثوابه قالوا: يا رَبّ، لا يضرّه ما أصابه في الدنيا، وتقول الملائكة: يا رَبّ عبدك الكافر تزوي عنه البلاء، وتبسط له في الدنيا، فيقول للملائكة: اكشفوا لهم عن ثوابه، فإذا رأوا ثوابه قالوا: يا ربّ، لا ينفعه ما أصاب في الدنيا.

وأُخرج عن خالد بن ثابت الربعي، قال: بلغني أنّه كان في بني إسرائيل رجل قد قرأ الكتاب، وأنَّه قد طلب بعلمه الشرف والمال في الدنيا، وأنّه ابتدع بدَعًا، وأنَّه لبث كذلك حتى بلغ سنًّا، وأنَّه بينما هو نائم على فراشه إذ تفكَّر في نفسه، فقال: هَبْ هؤلاء الناس لا يعلمون ما ابتدعت، أليس الله قد علم ما ابتدعت وقد اقترب الأجل؟! فلو أنّي تُبْت. فبلغ من اجتهاده في التوبة أنْ عمد فخرَّق ترقوته[11]، وجعل فيها سلسلة، ثم أوثقها إلى آسية[12] من أواسي المسجد، قال: لا أبرح مكاني هذا حتى ينزل فيَّ توبة أو موت. فأوحى الله في شأنه إلى نبي من أنبيائهم، أنَّك لو كنت أصبت ذنباً بيني وبينك لتبت عليك بالغًا ما بلغ، ولكن كيف بمَن أَضلَلت من عبادي، فماتوا، فأدخلتهم جهنم، فلا أتوب عليك؟!

وأُخرج عن وهب بن منبّه[13] أن عابدًا من بني إسرائيل كان في صومعة يتعبد، فإذا نفر من الغواة قالوا: لو استنزلناه بشيء. فذهبوا إلى امرأة بغي، قالوا لها: تعرضي له. فجاءته في ليلة مظلمة مطيرة، فقالت: يا عبد الله، آوني إليك، وهو قائم يصلي، فلم يلتفت إليها. فقالت: يا عبد الله، الظلمة والغيث، آوني إليك، فأدخلها إليه، فاضطجعت وهو قائم يصلي، فجعلت تتقلب وتريه محاسن خلقها، حتى دعته نفسه إليها، فقال: لا والله، حتى أنظر كيف صبري على النار فدنا من المصباح، فوضع إصبعًا من أصابعه فيه حتى احترقت، ثمّ رجع إلى مصلاه، فدعته نفسه، فعاد إلى المصباح، فوضع إصبعه أيضًا حتى احترقت، ثم رجع إلى مصلاه، فدعته نفسه أيضًا، فلم تزل تدعوه، وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه، وهي تنظر إليه، فصُعِقَتْ فماتت. فلمَّا أصبحوا غدوا لينظروا ماذا صنعت، فإذا هي ميتة. فقالوا: يا عدو الله، يا مرائي، وقعت عليها ثم قتلتها. فذهبوا به إلى ملكهم، فشهدوا عليه، فأمر بقتله. فقال: دعوني حتَّى أصلي ركعتين، فصلّى،

ثمَّ دعا فقال: أي ربّ، إنّي أعلم أنّك لم تكن لتؤاخذني بما لم أفعل، ولكن أسألك أنْ لا أكون عارًا على القُرّاء[14] بعدي، فردّ الله عليها نفسها فبرَّأته، ثمّ عادت ميّتة.

كان عمر بن الخطاب في زمانه رأس الناس، وهو جامع، وكان بعده ابن عباس في زمانه، وكان بعد ابن عباس في زمانه الشعبي، وكان بعد الشعبي في زمانه سفيان الثوري، وكان بعد الثوري في زمانه يحيى بن آدم2[15]. قال عمر بن الخطاب: أتمنى رجالًا ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة بن الجراح، وسالم مولَى أبي حذيفة، إنَّ سالمًا شديد في ذات الله، لو لم يخفِ الله ما عصاه.

في تاريخ ابن عساكر، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ثلاثة من قريش أحسن قريش أخلاقًا وأصبحهما وجوهًا، وأشدهما حياء، إنْ حدَّثوك لم يكذبوك، وإنْ حدَّثتهم بحقّ أو باطل لم يكذبوك، أبو بكر وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح. عن عثمان بن عطاء عن أبيه قال: قبر معاذ بن جبل بقُصَيْر خالد بالغور، وقبر أبي عبيدة بن الجراح بَبْيسان.

عن كريب مولى ابن عباس قال: إنْ كان رسول الله ﷺ ليجلّ العباس إجلال الولد والده، خاصّة خصّ الله العباس من بين الناس، وما ينبغي للنبي ﷺ أنْ يُجلّ أحدًا إلّا والدًا أو عَمًّا.

عن دحية الكلبي قال: قدِمت من الشام، فأهديت النبي ﷺ فاكهة يابسة من فستق ولوز وكعك، فوضعته بين يديه، فقال: (اللهم آتني بأحب أهلي إليك أو إليَّ يأكل معي من هذا)، فطلع العباس، فقال: (ادنُ يا عمّ)، فجلس فأكل. قلتُ: في سنده الكلبي متروك، وليس في الأحاديث ذكر الفستق واللوز، إلّا في هذا الحديث.

كان النبي ﷺ إذا جلس، جلس أبو بكر عن يمينه، وعمر عن يساره، وعثمان بين يديه، وكان كاتب رسول الله ﷺ، فإذا جاء العباس بن عبد المطلب تنحّى أبو بكر، وجلس العباس مكانه.

عن مجمع بن يعقوب الأنصاري عن أبيه قال: إنْ كانت حلقة رسول الله ﷺ لتشتبك حتى تصير كالإسوار، وإنَّ مجلس أبي بكر منها لفارغ ما يطمع فيه أحد من الناس، فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس، وأقبل عليه النبي ﷺ بوجهه، وألقى إليه حديثه، وسمع الناس، فطلع العباس، فتزحزح له أبو بكر من مجلسه، فعرف السرور في وجه رسول الله ﷺ، لتعظيم أبي بكر للعباس.

ولم يمرّ العباس بن عبد المطلب قطّ بعمر بن الخطاب، ولا بعثمان بن عفان، وهما راكبان إلَّا نزلا حتّى يجوز العباس إجلالًا له.

قال الطبراني: أبرك العلوم وأفضلها وأكثرها نفعًا في الدِّين والدنيا بعد كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ أحاديث رسول الله ﷺ، لِمَا فيها من كثرة الصلاة عليه، وأنَّها كالرياض والبساتين، تجد فيها كلّ خير وبِرّ، وفضل وذِكْر.

قال أبو مسلم الخولاني: أظْهِر اليأس ممّا في أيدي الناس، فإنَّ فيه الغنى، وأقِلّ طلب الحاجات إلى الناس، فإنَّ فيه الفقر إلى الحاضر، وإيّاك وما يعتذر منه من الكلام.

وقال سعد بن عبادة لابنه: يا بُني أوصيك بوصية فاحفظها، فإنْ أنت ضيّعتها فأنت لغيرها من الأمر أضيع، إذا توضأت فأتمّ الوضوء، ثم صلِّ صلاة امرئ مودّع، ترى أنَّك لا تعود، وأظهر اليأس من الناس، فإنّه غنى، وإيَّاك وطلب الحوائج إليهم، فإنّه فقر حاضر، وإيّاك وكلّ شيء يعتذر منه.

رُئِيَ عبد الله بن جعفر يماكس[16] في درهم، فقيل له: تماكس في درهم وأنتَ تجود من المال بكذا وكذا؟ فقال: ذاك مالي جُدْتُ به، وهذا عقلي بخلت به.

عن المفضل بن خليفة قال: كنَّا عند بعض المشايخ نكتب عنه وهو يملي علينا ويمازحنا، فعرض له عارض، فدخل منزله، ثم خرج مُكْفهرًّا عبوسًا، فقلت له: يا شيخ، ما قصتك؟ قال: نعم اكتبوا:

دخلت البيت أطلبُ فيه خبزًا

فجاؤوني بسندان الدقيقِ

وقالوا قد فنى ما كان فيه

فأظلم ناظراي وجفَّ ريقي

وأُنسيتُ القضايا إذ رواها

جرير عن مغيرة عن شقيقِ

وناح محابري وبكى كتابي

ولم أعرف عدوي من صديقي

إذا فني الدقيقُ فقدتُ عقلي

فوا حزنًا لفقدانِ الدقيق

قال عامر بن شبل الجرمي: سمعت رجلًا يحدِّث أنَّه سمع أنس بن مالك يقول: في الجنة قَصْر لا يدخله إلَّا صوَّام.

سأل رجل محمد بن سيرين: رأيتُ كأنّي آكل خبيصًا في الصلاة، فقال: الخبيص حلال، ولا يحلّ لك الأكل في الصلاة، فقال له: تقبّل امرأتك وأنت صائم؟ قال نعم، قال: فلا تفعل.

قال رجلٌ من بني زريق: أقطع أبو بكر طلحةَ أرضًا، وكتب له كتابًا، وأشهد به شهودًا، منهم عمر، فأتى طلحة عمر بالكتاب، فقال: اختم على هذا. قال: لا أختم عليه، هذا لك دون الناس، فانطلق طلحة وهو مُغضَب، فأتى أبا بكر، فقال: والله ما أدري أنت الخليفة أو عمر؟ قال: لا، بل عمر، ولكنه أبى.

وأُخرج عن عاصم بن عمر، قال: كان عمر يقول: يحفظ الله المؤمن.

كان عاصم بن ثابت بن الأقلح نذر أنْ لا يمسّ مُشرِكًا، ولا يمسّه مُشرِك، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منهم في حياته.

وأُخرج عن عمر قال: لو هلك حملٌ من ولد الضأن بشاطئ الفرات خشيتُ أنْ يسألني الله عنه.

وعن الزهري: أن النبي مرَّ بأعرابي يبيع شيئًا، فقال: (عليك بأول السوم، فإنَّ الربح مع السماح).

قال عبد الرحمن بن أبي بكرة: أنا أنعم الناس، أنا أبو أربعين، وعم أربعين، وخال أربعين، وأبي أبو بكرة، وعمّي زياد، وأنا أول مولود ولد بالبصرة.

روى الطبراني في الكبير عن المطلب بن عبد الله قال: لما أُحيط بالحسين بن علي قال: ما اسم هذا الموضع؟ قالوا: كربلاء. قال: صدق رسول الله ﷺ، هي كرب وبلاء.

عن هشام بن الغاز قال: هذه أوّل الحكمة: أدنى عمل خَيرٌ من الفراغ، والفراغ خير من عمل السوء، عدو حكيم خير من صديق أحمق، والوحدة خير من جليس السوء، والجليس الصالح خير من الوحدة، ما يفعل الحكيم بعدوّه خير ما يفعل الأحمق بنفسه.

ما جمع أحد من العِلم ما جمع محمد بن موسى البربري، وكان لا يحفظ إلّا حديثين، حديث الطائر، وحديث أنّ عمارًا تقتله الفئة الباغيةُ، مات البربري سنة 294 هـ. يقال: إنّ العاضِد خليفة مصر رأى في منامه أنْ جَرَتْ إليه عقرب من مسجد في مصر معروف فلدغته، فقال له عامر: ينالك مكروه من شخص مقيم به، فأمر باحضار مَن به، فأُحضر إليه صوفي، فرآه بصفة العجز عن إيصال مكروه إليه، فأطلقه. فلمَّا استولى السلطان صلاح الدين بن أيوب استفتى الفقهاء في خلع العاضد، فكان أكثرهم مبالغة في الحطِّ على العاضد، وأشدّهم حَضًّا على خلعه ذاك الصوفي، وكان هو الشيخ نجم الدين الخبوشاني الشافعي الزاهد المشهور، مجير الدين محمد بن يعقوب الأسعردي:

أطالعُ كلَّ ديوانٍ أراهُ

ولم أزجر عن التضمين طيري

أضمَّنُ كلَّ بيتٍ فيه معنى

فشِعري نصفه من شِعر غيري

وقال:

انظرْ إلى الروضة الغَنّاءِ حين بدتْ

واعجبْ إذا الغيمُ فيها أسبلَ المطَرَا

بينا تراهُ خيوطًا عند ناظرِهِ

حتى تراهُ على غُدْرانها إبرا

قال محمد بن مناذر الشاعر البصري، يرثي سفيان بن عُيَيْنة:

إنَّ الذي غودِرَ بالمُنْحَنى

هَدَّ من الإسلامِ أركانا

يا واحدَ الأُمَّةِ في عِلمهِ

لُقِّيْتَ مِن ذي العَرْشِ غُفْرانا

لا يُبْعِدَنْك الله من ميِّتٍ

وَرَّثَنا علمًا وأحزانا

قال الصفدي: حضر محمد بن وهيب البديهي مجلس بعض الفقهاء في عَقْد نِكاح، فقال له الفقيه: لو كتبتَ هذا العَقْد لشاركتنا في الحسنة، فقال له: نعم، كيف تريد ذلك، نَظَمًا أو نثرًا؟ فاقترحوه نَظْمًا، فقال: هاتِ كاتبًا، فأملى عليه نَظْمًا؛ ذَكَر الشروط، والتاريخ، وكلّ ما له علاقة بالصَّدَاق، لم يتردَّد فيه ولا أبطأ، كأنَّه يتلوه من حفظه، فبُهِتَ القوم، وقال له الفقيه: أمرك . واللهِ . عجب، أكاد لولا المشاهدة لا أصدقه، وركب إلى المنصور بن أبي عامر، فأخبره بالمجلس، وأراه الشِّعر، فعَجِب من ذلك، وأمر له بِصِلَةٍ، حُمِلتْ إليه، وكان عدّة ما ارتجله ثلاثين بيتًا، منها:

لأصدق عبد الله نجلُ محمدٍ

فتى أمويٌّ زَوَّجَ البِكْرَ مريما

وأمهرها عشرين عُجِّلَ نصفُها

دنانير يحويها أبوها مُسَلَّما

وأنكحها منه أبوها محمدٌ

سلالة إبراهيم من حيّ خَثْعَما

وباقي صداق البِكر باقٍ إلى مدى

ثلاثة أعوامٍ زمانًا متمَّما

مؤخَّرةً عنه يؤدي جميعها

إذا لم يكن عند التطلُّب مُعْدما

ومن شرطها أنْ لا يكونَ مُرَحَّلًا

لها أبدًا عن دارِها حيثُ يَمَّما

وأنْ لا يرى حتْماً بشيءٍ يضيرُها

يُصَرِّفُ فيه الدهرُ كفًا ولا فما

في كتاب نزهة الندماء: زعمت العرب أنَّ أشدّ الناس حقدًا أشدّهم شكرًا، وله شاهد من القانون الطبي، فإذا كان المزاج حارًّا يابسًا، أو باردًا يابسًا، قليل الرطوبة والسَّيَالة، ارتسم فيه الحال الذي يتعلّق به، فلا يخرج منه.

وأُخرج عن الأصمعي قال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: الحقّ نُتَف.

وأُخرج عن علي بن ربيعة قال: صارع علي بن أبي طالب رجلًا فصرعه، فقال: ثبَّتك الله يا أمير المؤمنين، قال: على صدرك.

وأُخرج عن الشعبي قال: كُنية الدجَّال أبو يوسف. وأُخرج عن الليث بن سعد قال: قال عمرو بن العاص: ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة. وأُخرج عن الأصمعي قال: لا يوجد للرجال شِعر جيد إلّا وللنساء مثله.

وأُخرج عن الشعبي قال: الكلام مصائد العقول.

وأُخرج عن أبي أيوب الأنصاري قال: كان يقال: من لم يصلحه الخير أصلحه الشر.

وأُخرج عن إبراهيم بن زياد سُبلان قال: سمع أعرابي رجلًا يَقَع[17] في الناس فقال: قد استدللت على عيوبك بكثرة ذِكرك لعيوب الناس، إنّ الطالب لها يطلبها بقَدْر ما فيه منها.

وأُخرج عن محمد بن مسلم الطائفي قال، كان يقال: إذا أراد الله أنْ يُتْحِفَ عبدًا قيَّض له مَن يظلمه. وحدّث رجل من أهل الجزيرة قال: مكتوب في الحِكمة: اشكرْ مَن أنعم عليك، وأَنْعِمْ على مَن شكرك.

وأُخرج عن محمد بن الحنفية قال: مَن كرمت عليه نفسه صغرت الدنيا في عينه.

وأُخرج عن ثعلبة بن سهيل قال: ما تداوى من جاز الأربعين سنة بمثل الحمَّام.

وأُخرج عن سفيان بن عُيينة قال: أراد النبي ﷺ الكلام فاعتاص[18] عليه، فقال: "إنّا معاشر الأنبياء يعترينا البكاء"، يعني قلَّة الكلام.

وأُخرج عن الأحنف. قال: ثلاث خلال لا ينبغي للعاقل أنْ يدعهن ومَن أطاعه: علم يحثه على عمل يتزوده، وطِبّ يذبّ [19] به عن جسده، وصنعة يستعين بها على أمر معاشه.

وأُخرج عن خالد بن صفوان قال: استصغرْ الكبير في طلب المنفعة، واستعظمْ الصغير في ركوب المضرَّة.

وأُخرج عن الأحنف قال: أربع يسود بهنّ الرجل: العِلم، والأدب، والعفَّة، والأمانة. وقال: أنا للعاقل المُدبِر أرجى منّي للأحمق المُقبل.

وقال: ثلاث مجالس لا عيب فيهنّ على الرجل أنْ يجلسها: انتظاره الجنازة، وانتظاره إذن السلطان، وطالب العلم. وثلاثة لا عيب فيهنّ على الرجل: أنْ يخدم أباه، وضيفه، وفرسه.

وأُخرج عن الربيع بن بَرَّة قال: الأمثال أقرب إلى العقول من المعاني. وأُخرج عن ليث قال: قال لي طاووس: تَعلَّم ما تعلَّمْتَ لنفسك، فإنّ الناس قد ذهبت منهم الأمانة.

وأُخرج عن قرَّة بن خالد قال: قلت لمحمد بن سيرين: أكانوا يتمازحون؟ قال: كان أبو هريرة يمازح ابن عمر.

وأُخرج عن سَلْم بن قتيبة قال: على اللبيب أنْ يعرف زمانه، فيعمل على قَدْر ما يرى منه.

وأُخرج عن الشعبي قال: تعايش الناس بالدِّين زمنًا طويلًا، حتّى ذهب الدِّين، ثمّ تعايش الناس بالمروءة زمنًا طويلًا حتّى ذهبت المروءة، ثمّ تعايش الناس بالحياء زمنًا طويلًا حتّى ذهب الحياء، ثمّ تعايش الناس بالرغبة والرهبة. قال: وأظنّه سيأتي بعد هذا ما هو أشدّ منه.

وأُخرج عن مالك بن أنس قال: إذا لم يكن للرجل في نفسه خير، فليس لأحد فيه خير.

وأُخرج عن ابن سيرين قال: مَن كان ذا لحية عظيمة فلم يتّخذ لحية بين لحيتين، فاعرفوا ذلك في عقله. وقال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ من أَفْكه الناس.

وأُخرج عن ابن أبي ذئب قال: سمعت سكينة بنت الحسين تقول: الزعفران صِبَا، والعُصْفُر طيب، والبياض مُلْك، والمَشَق[20] فَقْر.

وأُخرج عن الحسن قال: كنَّا في قوم يخزنون ألسنتهم، وينفقون أوراقهم، وبقينا في قوم يخزنون أوراقهم، ويرسلون ألسنتهم.

وأُخرج عن سفيان الثوري قال: بلغني أنَّ الغلام يثغر[21] في سبع سنين، ويحتلم في أربع عشرة، وينتهي طوله في إحدى وعشرين، وينتهي عقله في ثمانٍ وعشرين، ثمّ هي التجارب.

وأُخرج عن القاسم قال: مَدّ الفرات، فجاء برمانة مثل البعير، فكان الناس يرون أنَّها من الجنة. وأُخرج عن مصعب عن أبيه قال: كان يقال: لا يفهم المُلَحَ إلَّا عقلاء الرجال. وأُخرج عن قسامة بن زهير قال: روِّحوا القلوب تَعي الذِّكْرَ.

وأُخرج عن أبي غزية قال، كان يقال: يُستحسن الصبر عن كلّ شيء إلَّا عن الصديق.

وأُخرج عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "يا فاطمة كوني له أَمَةً يكن لكِ عبدًا، واعلمي أنَّ أطيب الطيب الماء وأحسن الحسن الكُحل".

وأخرج عن طاووس قال: قُمْ للقرد في زمانه.

وأُخرج عن الحسن قال: أصول الشرّ ثلاثة: العجز، والحسد، والحرص.

وأُخرج عن عائشة قالت: البياض نصف الحُسن.

وأُخرج عن أبي الدرداء، قال: إنّي لأستجم بالشيء من اللهو ليكون أقوى لي على الحقّ.

وأُخرج عن عبد الله بن هبيرة: أنّ سلمان سُئل عن السيئة التي لا تنفع معها الحسنة، قال: الكِبْرُ.

وأُخرج عن عدي بن حاتم قال: كان حاتم يقول لنا في الجاهلية: إذا كان الشيء يكفيكه التَّرك فاتركه. وأُخرج عن معاوية قال: لا تستحي من القليل، فإنَّ الحرمان أقلّ منه، ولا تجبن عن الكثير فإنَّك أكثر منه.

وأُخرج من طريق مَنَّة البرمكيَّة، قالت: سمعت بنت شهدة تقول: قلت لمعبد: ما أطيبُ الأصوات؟ قال: الصوتُ الأجشُّ وقتَ السَّحَر [22].

وأُخرج عن أبي الزناد قال: لا يزال في الناس بقيّة ما تُعُجِّبَ من العَجَب.

وأُخرج عن ابن عباس، قال: جاء ناس إلى رسول الله ﷺ فكانوا في المسجد في القرآن، فأقبل كعب بن مالك ينشده الشِّعر، فقيل: يا رسول الله، قرآنٌ وشِعرٌ في مجلس؟! قال: (هذا مرّة، وهذا مرّة).

وأُخرج عن الحريش بن موسى قال: قيل لرجل: ما بلغ من نسيانك، قال: أُوَذِّن في رُقعة. وأُخرج عن أبي خالد الوالبي قال: كنت أجلس في الحلقة مع أصحاب محمد، فلعلَّهم لا يذكرون إلَّا الشِّعر حتى يتفرَّقوا.

وأُخرج عن عبد الواحد بن زيد قال: قاعدوا أهل الدين، فإنْ لم تقدروا عليهم فقاعدوا أهل المروآت من أهل الدنيا، فإنّهم لا يرفثون في مجالسهم.

قيل للأحنف: مَنْ السَّيّد؟ قال: الذي إذا أقبل هابوه، وإذا ولَّى شتموه.

وأُخرج عن قتادة قال: في التوراة مكتوبٌ: لا تستبدل أخاً حديثاً بأخٍ قديم.

وأُخرج عن محمد بن سلام، قال: كان يقال: لا يُلام الرجل على أنْ لا يعرف الصواب في كلّ شيء، إنَّما يلام مَن سمع الصواب فلم يعرفه.

وأُخرج عن الحنظلي قال، قال لقمان لابنه: يا بُنَيّ إذا أردت أنْ تؤاخي رجلًا فأغضبه قبل ذلك، فإنْ أنصفك عند غضبك، وإلَّا فاحذره.

أُخرج عن أبي نعيم الطبري، قال: قَدِم وفد على عمر بن عبد العزيز، فيهم غلام، فذهب الغلام يتكلَّم، فقال له عمر بن عبد العزيز: الكُبْر يا غلام، فقال الغلام: لو كان الأمر بالكُبْر ما جلست هذا المجلس، إنَّ في الناس مَن هو أكبرُ منك، قال: فتكلَّم إذن يا غلام، فقال الغلام: يا عمر، إنَّ الله لم يرضَ أحدًا من خلقه فيجعله فوقك، فاجتهد أنْ لا يكون لله في أرضه مَن هو أطوع له منك.

وقيل لابن المقفَّع: ما البلاغة؟ قال: التي إذا سمعها الجاهل ظنّ أنه يُحْسِن مثلها. وقال: أنشدني محمد بن سعد الكراني قال: أنشدني أبو خلدة:

يُروى حديثٌ عن نبي الهُدى

يحكيه عن أسلافنا حاملوهْ

إنَّ رسولَ اللهِ في مجلسٍ

قال وقد حفَّ به آهلوهْ

إذا سألتم أحدًا حاجةً

فالتمسوها في حسان الوجوهْ

وأُخرج عن الأحنف بن قيس قال: إنِّي لأدع كثيراً من الكلام مخافةَ الجواب.

وأُخرج عن الأعمش قال: أتدرون ما قالت الأُذُن؟ قالت: لولا أنّي أخشى الجواب لطُلْتُ كما طال الكساء. وأُخرج عن بلال بن أبي بردة قال: رأيتُ عيش الناس في ثلاثة أشياء: امرأة تَسُرّك إذا نظرت إليها، وتحفظك في غيبك إذا غبت عنها، ومملوك لا تهتمّ معه قد كفاك جميع ما لزمك، فهو يعمل على ما تهوى، كأنَّه قد علم ما في نفسك، وصديق قد وضع مؤونة التحفّظ عليك فيما بينك

وبينه، فهو لا يعمل في صداقتك ما يرصد به عداوتك، ويخبرك بما في نفسه، وتخبره عمَّا في نفسك.

وأُخرج عن مصعب قال، قال عبد الملك بن مروان ليحيى بن سعيد: زعم عبد الله بن هلال أنّك تشبه إبليس، فقال له يحيى: وما تنكر أن شبَّه سيد الإنس سيد الجن. وأُخرج عن خلف بن حوشب قال، قال لقمان: العالِم مصباح، فمن أراد الله به خيرًا اقتبس منه.

وأُخرج عن معمر عن أبيه، قال: فقلت لهلال بن أشقر: ما أكلة بلغتني عنك؟ قال: جُعت مرَّة وأنا على بعيري، فنزلت فأكلته، إلّا ما حملت على ظهري.

وأُخرج عن الهيثم قال: كان هشام بن عروة يقول: أما ما وعيت من الفقه وما أشبهه فإنّي لا أمنعكموه، وأما مُلَحي فوالله لا أعطيكموها.

وأُخرج عن ابن عائشة قال: قَدِم على عمر بن عبد العزيز رجلٌ من أهل الثغور، له سن وعقل، فقال له عمر: كيف رأيت عمَّالنا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إذا طابت العين عَذُبت الأنهار. وأُخرج عن الشعبي قال: ما من بني عبد المطلب أحد إلَّا وقد قال الشِّعر امرأة ولا رجل، إلَّا رسول الله ﷺ. وأُخرج عن مسروق قال: كانت عائشة تروي ألف بيت شِعر.

حدَّثني أبو بكر محمد بن سهل الرازي قال: كنتُ بالموصل فرأيتُ رجلًا له مئة وثلاث وعشرون سنة، قد لقي السُّدي قال: قرأت في الإنجيل، فذكر أشياء إلى أنْ قال: الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، يتنفّس فيها ابن آدم ثلاثين ألف نَفَس، كلّ ساعة ألفاً ومئتين وخمسين نَفَسًا. قال الشعبي: كنت عند عبد الله بن عباس، فجاءه رجل فقال: يا أبا عباس، أَمَا تعجب من عائشة تذمّ دهرها، وتنشد شِعر لبيد:

ذهب الذين يُعاشُ في أكنافهم

وبقيتُ في خَلْفٍ كجلدِ الأجربِ[23]

يتأكلون ملاذةً ومشحّةً

ويُعابُ قائلُهم وإنْ لم يشْغَبِ[24]

فقال عبد الله بن عباس: لئن ذمت عائشة دهرها، فقد ذمت عاد دهرها، وُجِدَ في خزانة عاد سهم كأطول ما يكون من رماحنا عليه مكتوب، وذكر الشعر. فقال ابن عباس: ما بكينا من دهر، إلا بكينا عليه.

ذِكْر مُستحسنات انتقيتها من مُصنَّف عبد الرزاق

قال عبد الرزاق[25] في المُصنَّف عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان اسم جارية النبي ﷺ خضرة، وحماره يعفور، وناقته القصوى، وبغلته الشهباء، وسيفه ذو الفقار. وأخبرني محمد بن مرة قال: كان اسم سيف النبي ﷺ ذا الفقار، واسم درعه ذات الفضول.

عن أسماء بنت عميس، قالت: لما أهديت فاطمة إلى عليٍّ، جئتُ تلك الليلة فقال لي رسول الله ﷺ: (أجئتِ كرامة لرسول الله مع ابنته)؟. قلت: نعم إنَّ الفتاة ليلةَ يُبْنى بها، لا بدَّ لها من امرأة تكون قريبًا منها، إنْ عرضت حاجة أفضت بذلك إليها، فدعا لي دعاء إنّه لأوثق عملي عندي.

وقال هشام عن عروة: إنَّ عمر بن الخطاب قال: يعمدُ أحدكم إلى ابنته فيزوّجها القبيح الدميم، إنهن يُحبِبْنَ ما تحبون، يعني إذا زوَّجها الدميم كرهت من ذلك ما يكره، وعصت الله فيه.

وعن معمر، عن غير واحد: أن شريحًا[26] أتاه رجل وامرأته، فقال الرجل: أين أنت؟ قال: دون الحائط. قال: إنّي امرؤ من أهل الشام. قال: بعيد بغيض. قال: تزوّجت هذه المرأة. قال: بالرفاء والبنين، قال: فولدت لي غلامًا. قال: يهنئك الفارس. قال: وأردت الخروج بها إلى الشام. قال: مُصَاحَبًا. قال: وشرطت لها دارها. قال: الشرط أملك. قال: اقضِ بيننا. قال:

حدِّثْ حديثين امرأةْ

فإنْ أَبَتْ فأربعة

أحاديث إعطائه ﷺ
القِصَاص من نفسه

عن حبيب بن مسلمة: أنَّ رسول الله ﷺ دعا إلى القِصَاص من نفسه، في خدشة خدشها أعرابيًّا لم يقده[27]، فأتاه جبريل، فقال: يا محمد، إنّ الله لم يبعثك جبارًا ولا مستكبرًا. فدعا الأعرابيَّ، فقال: (اقتصَّ مني)، فقال الأعرابي: قد أحللتك، بأبي أنت وأمي، ما كنت لأفعل ذلك أبدًا، ولو أتيتَ علي نفسي. فدعا له بخير.

وقال ابن سعد: إنَّ رسول الله ﷺ رأى سوادَ بن عمرو متلخِّقًا، فقال: خُطّ خُطّ، وَرْس وَرْس، ثم طعنه بعود أو بسواك في بطنه، فماد في بطنه. فأثَّر في بطنه، فقال: القِصَاص يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: (القِصَاص)، وكشف عن بطنه. فقالت الأنصار: يا سواد، رسول الله! فقال: ما لبَشَر على بَشَر مِن فَضْل. قال: وكشف له عن بطنه، فقبَّله وقال: أتركها لتشفع لي بها يوم القيامة.

قال رجل لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، إنَّ عاملك فلانًا ضربني مئة سوط. قال: قمْ فاقتصّ منه. فكلّمه عمرو بن العاص في ذلك. فقال: ألا أقيد، وقد رأيت رسول الله ﷺ، يقيد من نفسه؟ قال: فدعنا فلنرضه. قال: دونكم فأرضوه. فافتدى منه بمئتي دينار، عن كلّ سوط بدينارين.

حدثنا عبد الله بن أبي مُسْقيَّة الباهلي، قال: أتيتُ رسول الله صلى الله وعليه وسلم، وهو واقف على بعيره، كأنّ رجله في غَرْزه جُمَّارة[28]، فاحتضنتها، فقرّ عني بالسوط، فقلت: القِصاص يا رسول الله. فناولني السوط، فقبلت ساقه ورجله. ورواه أبو القاسم البغوي قال: خرج رسول الله صلى

الله وعليه وسلم من مكة يريد الصلاة، فأخذ رجل بزمام ناقته. فقال: حاجتي يا رسول الله. فقال النبي صلى الله وعليه وسلم: (دعني فستدرك حاجتك). ففعل ذلك ثلاث مرات، والرجل يأبى، فرفع النبي صلى الله وعليه وسلم السوط فضربه، وقال: (دعني فستدرك حاجتك). فصلّى بالناس، فلما فرغ قال: أين الرجل الذي جلدتُ آنفًا؟ فجاء، فقال له: (أُدْنُ فاقتصَّ)، فرمى إليه السوط. فقال: بل أعفو. فقال رسول الله صلى الله وعليه وسلم: (والذي نفسي بيده، لا يظلم مؤمنٌ مؤمنًا فلا يعطيه مظلمته في الدنيا، إلَّا انتقم له منه يوم القيامة).

ويروى أنَّ رسول الله صلى الله وعليه وسلم أقاد من نفسه، وأنَّ أبا بكر أقاد رجلًا من نفسه، وأنَّ عمر أقاد سعدًا من نفسه.

وروى حفص بن ميسرة قال: إنَّ رسول الله صلى الله وعليه وسلم، خرج يومًا عاصبًا رأسه بعصابة حمراء، متّكئاً على الفضل بن عباس، فقال: (الصلاة جامعة). فاجتمع الناس، فصعد المنبر وقال: (أحمد إليكم الله الذي لا إله إلَّا هو، وقد دنا منّي حقوق من بين أظهركم، فمَن شتمتُ له عرضًا، فهذا عرضي فليستقد منه، ومَن ضربت له ظهرًا، فهذا ظهري فليستقد منه، ومَن أخذت له مالًا، فهذا مالي فليأخذ منه، ولا يقولن أحدكم إنّي أتخون الشحناء من رسول الله، ألّا إنّها ليست من طبيعتي ولا من خُلقي، وإنّ أحبكم إليَّ مَن أخذ حقًّا إنْ كان له، أو حلَّلني فلقيت ربي وأنا طيب النفس).

وأخرج أبو داود في سننه عن أُسَيْد بن حُضَيْر أنَّه قال: بينما هو يحدِّث القوم، وكان فيه مِزاح، بَيْنَا يضحكهم، فطعنه النبي صلى الله وعليه وسلم في خاصرته بعود، فقال: أصبرني. فقال: اصطبر. قال: إنّ عليك قميصًا وليس عليَّ قميص. فرفع النبي صلى الله وعليه وسلم قميصه، فاحتضنه وجعل يُقَبِّل كشحه، قال: إنما أردت هذا يا رسول الله.

وقال ابن أبي شيبة في المصنف عن الحكم: إنَّ العباس بن عبد المطلب لَطَم رجلًا، فأقاده النبي صلى الله وعليه وسلم من العباس، فعفا عنه. حدَّثَ شبابة عن شعبة، قال: لَطَم أبو بكر يومًا رجلًا لطمة، فقيل: ما رأينا كاليوم قطّ مَنْعَهُ ولَطْمَهُ، فقال له أبو بكر: اقتص، فعفا الرجل.

من قال رسول الله أكبر منِّـي وأنـا أسنّ منـه

وروى ابن إسحاق عن المطلب بن عبد الله بن قيس، قال: ولدت أنا ورسول الله صلى الله وعليه وسلم عام الفيل. قال: وسأل عثمان بن عفان قُباث بن أشيم أخا بني معمر بن ليث: أنتَ أكبر أم رسول الله؟ قال: رسول الله أكبرُ منّي، وأنا أقدمُ منه في الميلاد.

وقيل لقُباث: يا قُباث، أنت أكبر أمْ رسول الله؟ قال: رسول الله أكبرُ مني، وأنا أسنُّ منه.

وقال ابن أبي شيبة في المصنف، حدثنا جرير، عن المغيرة عن أبي رزين قال: قيل للعباس: أنت أكبر أم النبي صلى الله وعليه وسلم؟ فقال: هو أكبرُ مني، وأنا وُلدت قبله. أخرجه الحاكم في المستدرك.

في العُزْلة

قال ابن عبد البر في التمهيد: قد فضَّل رسول الله صلى الله وعليه وسلم العُزلة، وفضّلها جماعة العلماء والحكماء، ولا سيّما في زمن الفتن وفساد الناس. وروي من مرسل الحسن وغيره أنَّ النبي صلى الله وعليه وسلم قال: (صوامع المؤمنين بيوتهم). ثم أخرج بسنده عن أبي الدرداء، قال: (نعم صومعة الرجل المسلم بيته، يكفّ فيها بصره ونفسه وفرجه، وإيّاكم والمجالس في الأسواق فإنّها تلغي[29] وتلهي). قال بكير بن الأشج: ما فعل خالد؟ قلت: لزم البيت مُذْ كذا وكذا، فقال: أما إنّ رجالًا من أهل بَدْر لزموا بيوتهم بعد قتل عثمان، فلم يخرجوا إلّا إلى قبورهم.

وأُخرج عن عدسة قال: مرَّ بنا ابن مسعود، فأُهديَ له طير، فقال ابن مسعود: وددت أنّي حيث صِيْدَ هذا الطائر، لا يكلّمني أحد ولا أُكلّمه.

وأُخرج عن حذيفة قال: لوددت أنّي وجدتُ مَن يقوم بي في مالي، فدخلت بيتي، فأغلقتُ بابي، فلم يدخل عليَّ أحد، ولم أخرج إلى أحد حتى ألحق بالله عزّ وجلّ.

وكان طاووس يجلس في البيت، فقيل له: لِمَ تُكْثر الجلوس في البيت، فقال: حيف الأئمة، وفساد الناس.

وقال رجل لسفيان الثوري: أوصني. فقال: هذا زمن السكوت، ولزوم البيوت. وقال ابن عبد البر: فَرَّ الناس قديمًا من الناس، فكيف بالحال اليوم، قال: ورحم الله منصور الفقيه حيث يقول:

الخيرُ أجمع في السكوتِ

وفي ملازمة البيوتِ

فإذا استوى لك ذا وذلـ

ـك فاقتنع بأقلِّ قوتِ

وقال سفيان الثوري: ما رأيتُ لأحد خيرًا من أنْ يدخل في جحر. وقال سفيان: والله الذي لا إله إلا هو لقد حلَّت العزلة. وقال سفيان: أنكرْ مَن تعرف، ولا تتعرَّف إلى مَن لا تعرف.

وقال بعضهم:

إذا شئت أنْ تحظى من الكتب كلّها

بأطيب مَرْوِيٍّ وأحسن مسموعِ

فطالع مجاميعَ التعاليق إنّها

تُفَرِّق من همّ الفتى كلّ مجموعِ

وأخرج الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" عن الحسن قال: الأكلُ على الخُوان[30] فعلُ الملوك، وعلى المنديل فعلُ العَجَم، وعلى السفرة فعلُ العَرَب، وهو السنَّة.

قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي:

إذا لم يُعْنِكَ اللهُ فيما تُرِيدُهُ

فليسَ لمخلوق إليهِ سبيلُ

وإنْ هو لم يدللك في كلّ مسلكٍ

ضللتَ ولو أنَّ السماك دليلُ

وإنْ هو لم ينصرك لم تُلفِ ناصرًا

وإنْ عزَّ أنصارٌ وجلَّ قبيلُ

قال المنذري في تاريخ مصر: إنَّه وجده مجرَّبًا تكتبه في جَام الزجاج[31]، وتغسله بالماء، ثمّ ترش به وجه المريض: ربنا الذي في السماء تقدّس اسمه، أمرك في السماء والأرض، كما رَحْمتك في السماء والأرض، فاجعل رحمتك في الأرض، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، أنت رب المتطببين، أنزل رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا الوجع. فيبرأ بإذن الله، وهو لكلّ شيء.

قال إبراهيم: قال أبو زيد: وأخبرني المفضل أنه كتبه ورَشَّ في وجه بغل، فاستراح وقام مكانه، وقال إبراهيم: وأخبرنا أبو زيد أنَّ المفضل رفعه إلى النبي صلى الله وعليه وسلم، وذكر المفضل أنّه ما كتبه لأحد إلّا بِرِئ بإذن الله، وهو لكلّ وجع في الناس والبهائم، وذكر أبو زيد أنَّه قد جرَّبه في جارية له، كتبه ورشَّه في وجهها وكانت مريضة حين كتبه لها فبرئت بإذن الله تعالى. قلت: نعم، وهو حديث مرفوع أخرجه أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه من حديث أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله صلى الله وعليه وسلم يقول: (مَن اشتكى منكم شيئًا، أو اشتكاه أخ له، فليقل: ربنا الذي في السماء، تقدّس اسمك، أمرك في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا[32] وخطايانا، أنت رب المتطببين، أنزل رحمة من رحمتك، وشفاء من شفائك على هذا الوجع)، فيبرأ.

وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره، عن معاوية أنَّه قال: ألستم تعلمون أنّ كتاب الله حق؟ قالوا: بلى. قال: فاقرؤوا هذه الآية: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر: 21]، ألستم تؤمنون بهذا، وتعلمون أنّه حق؟ قالوا: بلى. قال: فكيف تلومونني بعد هذا؟ فقام الأحنف فقال: يا معاوية، والله لا نلومك على ما في خزائن الله، وإنَّما نلومك على ما أنزل الله من خزائنه، فجعلته أنت في خزائنك، وأغلقت عليه بابك. فسكت معاوية.

في حياة الحيوان
للكمال الدميري

عبد الله بن يحيى بن أبي الهيثم المصعبي، من أصحاب الشافعي، كان إمامًا عالِمًا صالحًا من أهل اليمن، من أقران صاحب البيان، في تصنيفه احترازات المهذِّب، مات سنة ثلاث وخمسمئة، روى: أنَّ ناسًا ضربوه بالسيف فلم تقطع سيوفهم فيه، فسُئل عن ذلك فقال: كنت أقرأ: {وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة: 255]، {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 64]، {وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ} [الصافات: 7]،
{وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [فصلت: 12]، {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: 4]، {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ} [البروج: 12]، إلى آخر السورة.

عمر بن هارون وابن جريج
آداب الطعام والكلام

لما قَدِم عمر بن هارون[33] مكة، وهو غلام، أخذ في الاختلاف إلى عبد الملك بن جريج[34] وهو عالمها، فأقام عنده سنين، وبرَّعه ابن جريج في العلوم، إلى أنْ رأى عمر أنَّه ظفر بما عند ابن جريج من فوائد العلوم، وأنواع الآداب، فأخذه من أهبة الإفاضة من مكة إلى بلخ[35]، فلمَّا رآه ابن جريج عازمًا على ذلك، قال له: أخِّرْ يومًا حتى أجمع بينك وبين أشراف مكة، فأجاب إلى ذلك. ودعا أشراف مكة، فلمَّا أخذوا مجالسهم، ومُدَّت الأطعمة، أقام ابن جريج على رأس عمر غلامًا بديعًا، قد استحكم الأدب، وقال له: إذا رأيتَ من هذا الخراساني عيبًا فأعلمه.

فقدَّم الوضوء إلى عمر، فلمَّا غسل يديه مسَّ عارضَه بيده اليمنى، فقال له الغلام: أخطأت يا خراساني من مسِّك عارضك بعد غسل يدك، وأمره بإعادة الغسل. فلما وضعت المائدة وقُدِّمت القصاع، بدأ عمر يفُتُّ الخبز في المرقة. فقال له الغلام: أخطأت يا خراساني. قال: فيم؟ قال: في هشمك الثريد قبل ذوقك له، فإنك لا تدري ما طعمه، فلعلك تعافه، فتكون قد أفسدته، وإذا بدأت بذوقه ووافقك طعمُه؛ هشمت الثريد على علمٍ منك بموافقته إيّاك. قال: صدقت. ثم ذوَّق فيه فلقة خبز، يتحرّى بذلك. فقال له الغلام: أخطأت يا خراساني. قال: فيمَ؟ قال: من مخالفة حديث النبيّ ﷺ حين قال: (ابدَؤُوا بالمِلح واختموا بالمِلح، ثلاث لقم)، لم يقل ابدؤوا بالذوق. قال: صدقت.

فبدأ بالمِلح، ثمّ عاد إلى الثريد، فجعل يأكل ويمسح أصابعه بالمنديل في كلّ لقمة، فقال له الغلام: أخطأت يا خراساني. قال: فيمَ؟ قال: مَسْحك الأصابعَ في كلّ لقمة بالمنديل، ولَعْقُ الأصابعِ

ممّا ندب النبي ﷺ إليه. قال: صدقت. فلما قدم الأرز مزّق عمرُ رقاقةً يقي بها أصابعه حرّ الأرز. فقال له الغلام: أخطأت يا خراساني. قال: فيمَ؟ قال: من رفعك اللقمة الحارة فتضعها في فيك حارة فتحرق، وتستحي من أصحابك أن تلفظها فتبتلعها، فتحرق معدتك، ولا تدري كيف تخلص منها؟ قال عمر: صدقت، فخجل وأمسك. قال له الغلام: أخطأت يا خراساني. قال: فيمَ؟ قال في إمساكك عن الطعام قبل إمساك مَن على المائدة، أوما سمعت قول العرب: لا تكن أول مَن يمسك عن الطعام، فيستحي منك من لم يستوفِ، فيمسك لإمساكك، ولا تكن آخر من يمسك فتنسب إلى النهم. فجعل عمر يساعد مَن على المائدة إلى أنْ استوفوا.

فلما رفعت المائدة، وقُرّب إليه الوضوء، مدّ عمر يده اليسرى لأخذ الحُرْض[36]. فقال له الغلام: أخطأت يا خراساني. قال: فيمَ؟ قال: في أخذ الشيء النقي بالشمال، وقد نُهي عنه. قال: فمدّ اليمنى باسطًا إلى الخادم ليصب عليه الحُرْض. فقال: أخطأت يا خراساني. قال: فيمَ، ولا يأخذ الشيء بعد اليسرى إلّا باليمنى؟ قال الغلام: ولكن إذا صُبَّ الحرض على يمينك، ثم ألقيته على يسارك، تكون عملت عملًا واحدًا مرتين، ولكنْ خُذ المحرضة باليمنى، وصبّ الحرض بها على اليسرى، ثم ردَّ المحرضة، وقد أخذت الشيء النقي باليمين، ولم يجد العائب عليك عيبًا. قال: صدقت.

وأخذ الماء فغسل كفيه ظاهرهما وباطنهما. فقال له الغلام: أخطأت يا خراساني. قال: فيمَ؟ قال: في غسلك ظاهر كفيك. قال عمر: وأيّ بأس في ذلك؟ قال: في ذلك خصلتان ذميمتان، قال عمر: ما هما؟ قال: أمَّا الخصلة الأولى فيدل على أنَّك غمست يديك في المرقة، وذلك من وجهين ذميمين، إمّا سوء الأدب، وإما الشره والنَّهْم، وأمّا الخصلة الثانية، فيدل على أنّك تريد بذلك إزالة وسخ عليهما، وكلّ ذلك وبعضه أقبح من بعض. فقال عمر: ابن كم أنت؟ قال: ابن أبٍ واحدٍ، قال: إنّما عنيت سِنّك، قال: فقل: ابن كم سَنَة أنت؟ قال: ابن ثماني حجج، فقال: أحيَّة أمك؟ فقال الغلام: ما هي بحيّة ولا عقرب، ولكنَّها امرأة. قال عمر: فكيف أقول؟ قال: قل: من الأحياء أمك؟ فقال عمر في نفسه، وتقاصرت إليه نفسه، إنّي لم أتعلّم أدب الأكل والشرب، فلست براجع. ووطّن نفسه على المقام عند ابن جريج، فما فارقه إلَّا بعد سنين.

دعوة مستجابة

ودعا أحمد بن طولون[37] برجل، فأُدخل إليه، فقال لحاجب من حجابه: خذْ هذا فاضرب عنقه، وأتني برأسه، فأخذه ومضى به، فأقام طويلًا، ثمَّ أتى وليس معه شيء. فقال له أحمد بن طولون: ما قصتك؟ فقال: الأمان. قال: لك الأمان. قال: مضيت بالرجل لأضرب عنقه، فجزت ببيت خال، فقال لي: اِئذْن لي أدخل هذا البيت، فأصلي فيه ركعتين. فاستحييت من الله أنْ أمنعه من ذلك، فأذنت له فدخل، فأطال، فدخلت إلى البيت فلم أجد فيه أحدًا، وليس في البيت طاقٌ نافذ، فجئت لأخبرك بذلك، قال: فهل سمعته يقول شيئًا؟ قال: نعم، سمعته يقول وقد رفع يديه: يا لطيفًا لما يشاء، يا فعّالًا لما يريد، صَلِّ على محمد وآله، والطف بي في هذه الساعة، وخلصني من يديه. فدخلت البيت بعد هذا أطلبه فلم أجد فيه أحدًا. فقال له أحمد بن طولون: صدقت، هذه دعوى مستجابة.

مَعْن بن زائدة

دخل أعرابيٌّ على معن بن زائدة[38] فأنشده:

أصلحك الله قَلَّ ما بيدي

فما أطيقُ العيالَ إذ كثروا

ألحَّ دهرٌ رمى بكَلْكَلِهِ

فأرسلوني إليكَ وانتظروا[39]

فقال معن: لا جَرَمَ[40]، والله لأعجِّلنَّ أوبَتَكَ، ثم قال: ناقتي الفلانية، وألف دينار، فدفعها إليه وهو لا يعرفه.

سفيان بن عيينة

خرج سفيان بن عُيينة[41] إلى أصحاب الحديث وهو ضَجِر، فقال: أليس من الشقاء أنْ أكون جالسْتُ ضمرة بن سعيد، وجالسَ أبا سعيد الخدري، وجالسْتُ عمرو بن دينار، وجالسَ جابر بن عبد الله، وجالست عبد الله بن دينار، وجالسَ ابن عمر، وجالستُ الزهريَّ، وجالسَ أنس بن مالك، حتّى عَدَّد جماعة، ثم أنا أجالسكم. فقال له حَدَثٌ في المجلس: والله لشقاءُ مَن جالس أصحابَ رسول الله بك أشدُّ من شقائك بنا. فأطرقَ وتمثَّل بشعر أبي نواس:

خَلِّ جَنْبَيْك لرامِ

وامْضِ عنهُ بسلامِ

مُتْ بداءِ الصَّمْتِ خيرٌ

لك من داءِ الكلامِ

فسأل: مَن الحَدَث؟ فقالوا: يحيى بن أكثم[42]. فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة السلطان. قال: وكان يحيى بن أكثم يحسد حسدًا شديدًا، وكان مُفَنَّنًا، فكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه، سأله عن الحديث، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو، وإذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام، ليقطعه ويخجله، فدخل إليه رجلٌ من أهل خراسان ذكيٌّ حافظ، فرآه مُفَنَّنًا، فقال له: نظرت في الحديث؟ قال: نعم، قال: فما تحفظ من الأصول؟ قال: أحفظ شريك عن أبي إسحاق عن الحارث أن عليًّا رجم لوطيًّا. فأمسك ولم يكلّمه.

يحيى بن أكثم

وَوُلِّيَ يحيى بن أكثم قضاء البصرة وسِنُّهُ عشرون سنة أو نحوها، فاستصغره أهل البصرة، فقال له أحدهم: كم سِنّ القاضي؟ فعلم أنّه قد استُصغره، فقال له: أنا أكبر من عتَّاب بن أُسيد[43] الذي وجّه به النبي صلى الله وعليه وسلم قاضيًا على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل[44] الذي وجَّه به النبي ﷺ قاضيًا على أهل اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سور[45] الذي وجَّه به عمر بن الخطاب قاضيًا على أهل البصرة.

في كتاب العِشق والعُشَّاق

كان رجلٌ من بني إسرائيل يقال له عبود، عشق ابنة عمّ له، فلم يزل بعمِّه حتى زوَّجه بها، فحملها معه. فلمَّا صارت إلى فراشه ماتت فجأة، فلما دُفنت، أقام على قبرها لا يأكل ولا يشرب، باكيًا منتحبًا. فمرّ به عيسى عليه السلام، فقال له: ما خبرك؟ فعرَّفه. فقال: إنّ أجلها قد فرغ، ورزقها انقطع، فإنْ جعلت لها شيئًا من عمرك دعوت الله فأحياها. فقال: قد وهبت لها نصف عمري من ذي قبل. فدعا عيسى عليه السلام لها فأحياها. حتى إذا قرب من مدينته، قال لها: يا هذه، لي ثلاث ما طعمت ولا نمت، فدعيني أنام ساعة أستريح، وخذي رأسي في حِجْرك، ففعلت ونام، فمرّ بها بعض أبناء الملوك فأعجبته، وأعجبها، فأمرها باتباعه، فوضعت رأس عبود على حجر، وانطلقت مع ابن المَلِك. وانتبه عبود من نومه، فبقي حائرًا، فمرّ به قوم فسألهم، فأخبروه أنّهم رأوها مع ابن المَلك في هودجه، فسار حتى لحقه وتعلّق بدابتها، فقيل له: ما تريد؟ فقال: إنَّ عند هذه المرأة وديعة لي، فلتردَّها عليَّ، ولتذهب حيث شاءت. فقالت: وما هي؟ قال: ما وهبته لكِ من عمري. فقالت: قد رددته عليك؛ فعادت ميتة لوقتها.

زيارة المريض

أنشدنا محمد بن الجهم السمّري لنفسه:

لا تضجرنَّ عليلًا كنت عائدهُ

إنّ العيادة يومًا إثْر يومين

وقد روى مندلٌ عن جابر خبرًا

ألَّا يطيل جلوسًا قبل ذي الدينِ

بل سلهُ عن حاله وادعُ الإلهَ لهُ

واجلس بقدرِ فُواقٍ بين حلبينِ[46]

من زار غِبًّا أخًا دامت مودتُه

وكان ذاك صلاحًا للخليلينِ

من تاريخ المسبحي[47]

كافور الإخشيدي

كان كافور الإخشيدي له في كلّ عيد أضحى عادة، وهو أنْ يسلِّم إليَّ بغلًا محمَّلًا ذهبًا ووَرِقًا تتضمَّن أسماء قوم، ويمضي معي صاحب الشرطة، ونقيبٌ يعرف المنازل، حتى أُسلِّم ذلك إلى مَن جُعِلَ له، فأطرقُ منزلَ كلِّ إنسان ما بينَ رجل وامرأة، وأقول: الأستاذ أبو المسك كافور يهنئك بعيدك، ويقول لك: اصرف هذا في منفعتك.

فلما كان في عيد، جريتُ على العادة، وزادني في العطاء مئة دينار للشيخ الصوفي أبي عبد الله بن جابار، فصرفت المال لأربابه، ولم يبقَ إلَّا الصرة فجعلتها في كُمِّي وسرتُ مع النقيب حتى أتينا منزله بظاهر القرافة، فطرقتُ الباب، فنزل وقال: ما حاجتك؟ قلت: الأستاذ أبو المسك كافور يخص الشيخ بالسلام. فقال: والي بلدنا؟ قلت: نعم، قال: حفظه الله، الله يعلم أنَّني أدعو له في الخلوات وأدبار الصلوات. قلت: وقد أنفذ معي هذه الصرَّة، وهو يسألك قبولها لتصرف في مؤونة هذا العيد المبارك. فقال: نحن رعيته، ونحبّه في الله، وما نأخذ شيئًا، فراجعته القول، فتبيَّنَ في وجهه الضجر والقلق. فتركته وانصرفت إلى كافور، فأخبرته بدعاء الناس له. فقال: الحمد لله الذي جعلني سببًا لإيصال الراحة إلى عياله، ثمّ أخبرته بامتناع ابن جابار، فقال: نعم، هو جديد لم تجرِ بيننا وبينه معاملة قبل اليوم، عُدْ إليه واطرق الباب، فإذا نزل إليك فاستفتح، واقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم {طه، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآَنَ لِتَشْقَى} [طه: 1 . 2] إلى قوله: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى} [طه: 6]، يا بن جابار، يقول لك كافور، ومَنْ كافور، العبد الأسود، ومن مولاه، ومن الخلق بقي لأحد مع الله ملك، تلاشى الخلق كلّهم، تدري مَن معطيك، وعلى مَن رددت، أنت ما سألت، هو أرسل إليك، يا بن جابار، ما تفرّق بين السبب والمسبب، قال أبو بكر: فركبت وسرت، فطرقت منزله، فنزل إليَّ، فقرأت عليه الآية، وقلت ما قال كافور. فبكى

ابن جابار، وقال: أين ما حملت؟ فأخرجت له الصرَّة، فأخذها وقال: علَّمنا كافور كيف يكون التصوف، قل له: أحسن الله جزاك، فعدلت إليه فأخبرته، فَسُرَّ بذلك، ثم سجد لله شكرًا، وقال: الحمد لله الذي جعلني سببًا لإيصال الراحة إلى عباده.

قال محمد بن أبي ليلى[48]: كنتُ في مجلس القضاء، وردت عليَّ عجوز ومعها شابة، فذهبت العجوز تتكلَّم، فقالت الشابة: أصلح الله القاضي، مُرها فلتسكت حتى أتكلم بحُجّتي وحجّتها، وسفرت عن وجه، والله ما ظننت أنْ يكون مثله إلَّا في الجنة، قالت: أصلح الله القاضي، هذه عمَّتي مات أبي وتركني يتيمة في حِجرها.

وفي تذكرة الوداعي[49]

قال إسماعيل بن إبراهيم الحساني: كنتُ أتعاطى التجارة وأزكّي، فجئتُ يومًا إلى ميضأة، ومعي ثلاثمئة وخمسون دينارًا في منديل، فوضعتها في طاقة الخلاء، ثم نسيت وخرجت، وتوضأتُ ودخلت المسجد، فتذكرتُ وأنا في الصلاة، فهممت بالخروج منها، ثم قلت في نفسي: راح المال ويروح الدِّين؟ لا والله، فأتممتُ الصلاة، وجئتُ إلى الميضأة، فصادفت رجلًا أعجميًّا خارجًا من الخلاء الذي كنت فيه، وهو مشمّر الثياب، مكشوف العورة، فدخلت فوجدت المنديل بحاله، فأخذته وخرجت على عقبي، فقال لي العجمي: رأيت الذي رأيت؟ قلت: وما ذاك؟ قال: كان في الطاقة ثعبان عظيم هَمَّ بنهشي، فلأجل ذاك خرجت ولم أغتسل.

قال عبد الله بن الحارث: كانت البهائم تتكلَّم قبل أنْ يُخلق آدم عليه السلام، وكان النسر والحوت يلتقيان، فيخبر النسرُ الحوتَ بما حدث في البَرِّ، ويخبر الحوتُ النسرَ بما حدث في البحر، فلما خلق الله آدم التقيا، فقال النسر للحوت: لقد حدث في البَرِّ مَن يستنزلني من وكري، ويستخرجك من بحرك.

دخل كمال الدين بن يونس[50] على الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ يهنيه بالعافية من مرض، وأنشده:

لقد كان وجهُ العيشِ مذْ كنتَ شاكيًا

عبوسًا فمُذْ عُوفيتَ عادَ تبسَّما

فديناك مما تتَّقيهِ فإنَّهُ

يهونُ علينا أنْ تُعافى ونَسقَما

مرَّ العَلَم بن الصاحب بن شكر [51] على بعض الأكابر من علماء مصر، ومعه كتاب، فقال له: يا شيخ، أرني أنظر في كتابك هذا، فقال: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [البينة: 1].

حُكي عن الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري أنَّه قال يومًا في مجلسه: يا ذا الجُنُب، أما تستحي أنْ تحضر مجلس سماع حديث رسول الله ﷺ، وأنت جُنُب، فتُبْ إلى الله، وإنْ عدت الثانية فضحتك.

رأى الملك الظاهر بيبرس في النوم أنَّه ولد ثلاث بنات، فعُبِّرَ له بأنَّه يفتح ثلاث قلاع، ففتح بعد مدة يسيرة قيسارية[52]، وأرسوف[53]، ويافا.

قيل: ليس في بني هاشم عباسية ولدت خليفة سوى زبيدة.

قال سهل بن هارون: اللسان البليغ، والشِّعر الجيد، لا يكادان يجتمعان في أحد، وأعسر من ذلك أنْ تجتمع بلاغة القلم وبلاغة اللسان.

وقال إسماعيل بن غزوان: الأصوات الحسنة، والعقول الحسنة كثيرة، والبيان الجيّد والجمال البارع قليل.

قيل: إذا رسخ الرجل في العلم رفعت عنه الرؤيا الهائلة.

لبعضهم:

الموداتُ إنْ خلتْ

من هدايا مكررهْ

كطبيخٍ خلا من الـ

لحمِ يُدعى مزوَّرهْ

ذكر الأصل في المفاخرات

قال أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبْرة: تفاخرت الأوس والخزرج فيمَن ضرب على يد رسول الله ﷺ، ليلة العقبة أول الناس، فقالوا: لا أحد أعلم به من العباس بن عبد المطلب، فسألوا العباس، فقال: ما أحد أعلم بهذا منّي، أوَّل من ضَرَب على يد النبي ﷺ تلك الليلة، أسعد بن زرارة، ثم البراء بن معرور، ثم أسيد بن الحضير.

قال ابن سعد: تزوج علي أسماء بنت عُميس[54]، فتفاخر ابناها محمد بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر، قال كلّ واحد منهما: أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك، فقال لها عليٌّ: اقضي بينهما. فقالت: ما رأيتُ شابًّا من العرب كان خيرًا من جعفر، ولا رأيتُ كهلًا خيرًا من أبي بكر، فقال عليٌّ: ما تركت لنا شيئًا. فقالت: والله إنَّ ثلاثة أنت أحسنهم لخيار. فقال لها: لو قلت غير هذا لمقتّك.

وأخرج أحمد في مسنده، قال: افتخر أهل الإبل والغنم عند رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (الفخر والخيلاء في أهل الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم). وقال: (بُعث موسى وهو يرعى غنمًا على أهله، وبُعِثتُ أنا، وأنا أرعى غنمًا لأهلي بجياد).

وأخرج الحكيم الترمذي قال: افتخر الحيان من الأنصار الأوس والخزرج، فقالت الأوس: منَّا غسيل الملائكة حنظلة بن الراهب، ومنَّا من اهتزّ لموته عرش الرحمن سعد بن معاذ، ومنَّا مَن أُجيزت شهادته بشهادة رجلين، خزيمة بن ثابت، فقالت الخزرج: منّا أربعة جمعوا القرآن، لم يجمعه أحد غيرهم؛ زيد بن ثابت، وأبو زيد، وأُبَيُّ بن كعب، ومعاذ بن جبل.

وأخرج ابن سعد في الطبقات عن عائشة قالت: فُضِّلتُ على نساء النبي ﷺ بعشرٍ، قيل: ما هنَّ يا أمَّ المؤمنين؟ قالت: لم ينكح بكرًا قطّ غيري، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران غيري، وأنزل الله تبارك وتعالى براءتي من السماء، وجاءه جبريل عليه السلام بصورتي من السماء في حريرة، وقال: تزوجها فإنّها امرأتك، وكنت أغتسل أنا وهو من إناء واحد، ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه، ولم يكن يفعل ذلك بأحد من نسائه غيري، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي، ولم يكن ينزل عليه وهو مع أحد من نسائه غيري، وقبض الله نفسَه وهو بين سُحْري ونَحْري[55]، ومات في الليلة التي كان يدور عليَّ فيها، ودُفن في بيتي.

وأخرج ابن سعد عن عائشة قالت: أُعطِيتُ خِلالًا ما أعطيتها امرأة، ملكني رسول الله ﷺ وأنا بنت سبع سنين، وأتاه المَلَك بصورتي في كَفّه فنظر إليها، وبنى بي لتسع سنين، ورأيتُ جبريل، ولم تره امرأة غيري، وكنت أحبَّ نسائه إليه، وكان أبي أحبَّ أصحابه إليه، ومرض رسول الله صلى الله وعليه وسلم في بيتي، فمرَّضْتُه، وقُبِضْ ولم يشْهَدْهُ غيري والملائكة.

مفاخرة السَّيف والقَلَم
للإمام زين الدي ن عمر بن مظفر
ابن الوردي[56]

قال: لما كان السيف والقلم عُدَّتَي العمل والقول، وعُمدتَي الدول، فإنْ عدمتهما دولة فلا حَول، ورُكنَي إسناد المُلْك المعربين عن المخفوض والمرفوع، ومقدّمتَيْ نتيجة الجدل الصادر عنهما المحمول والموضوع، فكَّرتُ أيّهما أعظم فخرًا، وأعلى قَدْرًا، فجلست لهما مجلس الحُكم والفتوى، ومثَّلْتهما في الفكر حاضرَيْن للدعوى، وسوَّيت بين الخصمين في الإكرام، واستنطقتُ لسان حالهما للكلام. فقال القلم: {بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود: 41]، {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [الشمس، 3 . 4]، أمّا بعد حَمْد الله بارىء النَّسَم، {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} [العلق: 4]، وشرَّفه بالقسم، وجعله أول ما خلق، وجمَّل الورق بغصنه، كما جمَّل غصنه بالورق، والصلاة على نبيه القائل: (جفَّت الأقلام)، وعلى آله وصحبه أعلم المعارف، وأعرف الأعلام؛ فإنَّ للقلم قصب السباق، فالكاتب بسبعة أقلام من طبقات الكتاب في السبع الطباق، جرى بالقضاء والقَدَر، وناب عن اللسان فيما نهى وأمر، طالما أربى على البيض والسمر في ضرابها، وقاتل في البعد والصوارم[57] في القُرُب نائمة ملء أجفانها، وماذا يشبه القلم في طاعة ناسه، ومشيهِ لهم على أمِّ رأسه.

قال السيف: باسم الله الخافض الرافع، {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ} [الحديد: 24]، فأمّا بعد حَمْد الله، فإنّ السيف عظيم الدولة، شديد الصولة، مُحيي أسطار البلاغة، وأساغ ممنوع

الإساغة، مَن اعتمد على غيره في قهر الأعداء تَعِب، وكيف لا وفي حدّه الحدُّ بين الجِدّ واللعبِ، وإنْ كان القلم شاهدًا، فالسيف قاض، وإنْ اقترنت محاولته بأمر مستقبل قطعه السيف بفعلٍ ماضٍ، به ظهر الدين وهو العُدَّة لقمع المعتدين، حمَلَتْهُ دون القلم يدُ نبيّنا، فتشرف بذلك في الأمم شرفاً بَيّناً، الجنة تحت ظلاله، ولا سيّما حين يُسَلُّ، فترى وَدَقَ[58] الدم يخرج من خلاله، زُيِّنَتْ بزينة الكواكب سماء غِمدهِ، وصدق القائل: السيف أصدق إنباء من ضده، لا يعبث به الحامل، ولا يتناوله كالقلم بأطراف الأنامل، ما هو كالقلم المشبه بقوم عُرُّوا عن لبوسهم، ثم نُكِسوا كما قال تعالى: {عَلَى رُؤُوسِهِمْ} [الأنبياء: 65]، فكأن السيف خُلق من ماء دافق، أو كوكب راشق، لا يشترى كالقلم بثمنٍ بَخْس، ولا يبلى كما يبلى القلم بسوادٍ وطَمْس، كم لقائمه المنتظر من أثر في عين، أو عين من أثر، فهو في جراب القوم قوام الحب، ولهذا جاء مطبوع الشكل، داخل الضرب.

قال القلم: {أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ} [الزخرف: 18]، يفاخر وهو قائم على الشمال، الجالس عن اليمين، أنا المخصوص بالرأي، وأنت المخصوص بالصَّدي[59]، أنا آلة الحياة، وأنت آلة الردى، ما لِنْتَ إلَّا بعد دخول السعير، وما حُدِدْتَ إلَّا عن ذنب كبير، أنت تنفع في العمر ساعة، وأنا أفني العمر في الطاعة، أنت للرَّهَب وأنا للرَّغَب، وإذا كان بصرك حديدًا، فبصري ماء ذهب، أين تقليدك من اجتهادي؟ وأين نجاسة دمك من طهارة مدادي؟

قال السيف: أأنفٌ في السماء، وإست في الماء؟ أم مثلك يُعيِّر مثلي بالدماء؟ فطالما أمرت بعض فراخي وهي السكين، فأصبحت من النفاثات في عقدك يا مسكين، فأخلتْ من الحياة جثمانك، وشقتْ أنفك، وقطعتْ لسانك، ويكَ، إنْ كنت للديوان فحاسبٌ مهموم، أو للإنشاء فخادمٌ لمخدوم، أو للبليغ فساحرٌ مذموم، أو للفقيه فناقصٌ في العلوم، أو للشاعر فسائلٌ محروم، أو للشاهد فخائفٌ مسموم، أو للمعلِّم فللحّي القيوم، وأمَّا أنا فلي الوجه الأزهر، والحلية والجوهر، والهيبة إذ أُشْهَر، والصعود على المنبر، شكلي الحسن علي، ولم لا؟ حَمَلك الخطيبُ بدلي، ثمّ إنّي مملوك كمالك، فاتك كناسك، أسلك الطرائق، وأقطع العلائق.

وقال القلم: أمَّا أنا فابن ماء السماء، وأَليف الغدير، وحليف الهواء، وأمَّا أنت فابن النار والدخان، وباتر الأعمار، وخَوَّان الإخوان، تفصل ما لا يُفصل، وتقطع ما أمر الله به أنْ يوصل، لا جَرَم سُمَّ السيف وصُقِل قفاه، وسُقي ماءً حميمًا، فقطع أمعاءه، يا غراب البين، ويا عُدَّة الحَيْن، ويا معتلّ العين، ويا ذا الوجهين، كم أفنيت وأعدمت وأرملت وأيتمت؟!

قال السيف: يا بن الطين، ألستُ ضامرًا وأنتَ بطين، كم جريتَ بعكس، وتصرفتَ في مكس[60]، وزَّورتَ وحرّفت، ونكَّرْتَ وعرَّفْت، وسطَّرْتَ هجوًا وشتمًا، وخلَّدت عارًا وذمًّا، أبشِر بفرط روعتك، وشدَّة ضيقتك، إذا قست بياض صحيفتي بسواد صحيفتك، فألِن خطابك فأنت قصير المدة، وأحسن جوابك فعندي حدَّة، وأقللْ من غلظتك وجبْهِكَ، واشتغل عن دمٍ في وجهي بمدّة في وجهك، وإلّا فأدنى ضربة منّي تروم أرومتك، فتستأصل أصلك وتجتث جرثومتك، فسقيًا لمَن غاب بك عن غابك، ورعيًا لمن أهاب بك لسلخ إهابك.

فلمَّا رأى القلمُ السيف قد احتدَّ، أَلَانَ له من خطابه ما اشتدّ، وقال: أمَّا الأدب فيُؤَخذ عنّي، وأمَّا اللطف، فيُكتسب منِّي، فإنْ لنتَ لنتُ، وإنْ أحسنتَ أحسنتُ، نحن أهل السمع والطاعة، ولهذا تجمع في الدواة الواحدة جماعة، وأمَّا أنتم، فأهل الحِدّة والخلاف، ولهذا لم يجمعوا بين سيفين في غلاف.

قال السيف: أمكرًا ودعوى عِفَّة، لأمرٍ ما جَدَع قصيرٌ أنفَه، لو كنت كما زعمت ذا أدب، لما قابلت رأسَ الكاتب بعُقدة الذَّنب، أنا ذو الصيت والصوت، وغِراراي[61] لسانا مَشْرفيٍّ يرتجل غرائبُ الموت، أنا من مارجٍ من نار، والقلم من صلصال كالفخار، وإذا زعم القلم أنَّه مثلي، أمرت مَن يدق رأسه بنعلي.

قال القلم: صَهْ، فصاحب السيف بلا سعادة كالأعزل.

قال السيف: مَهْ، فقلم البليغ بغير حظّ كمغزل.

قال القلم: أنا أزكى وأطهر.

قال السيف: أنا أبهى وأبهر.

فتلا ذو القلم لقلمه: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} [الكوثر: 1].

فتلا صاحب السيف لسيفه: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [الكوثر: 2].

فتلا ذو القلم لقلمه: {إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} [الكوثر: 3].

قال القلم: أما وكتابي المسطور، وبيتي المعمور، والتوراة والإنجيل، والقرآن ذي التبجيل، إنْ لم تكفَّ غَرْبك، وتبعد منّي قربك، لأكتبَنَّك من الصمّ البُكم، ولأسطِرَنَّ عليك بعلمي سجلًا بهذا الحكم.

قال السيف: أما ومتني المتين، وفتحي المبين، ولسانَيَّ الرَّطبَين، ووجهَيَّ الصُّلْبَين، إنْ لم تغب عن بياضي بسوادك، لأسَخِّمَنَّ وجهك بمدادك، ولقد كسبت من الأسد في الغابة، توقيح العين والصلابة، مع أنّي ما ألوتك نصحاً: {أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا} [الزخرف: 5].

قال القلم: سلِّمْ إليّ مع مَن سلَّم، إنْ كنت أعلى فأنا أعلم، أو كنت أحلى فأنا أحلم، أو كنت أقوى فأنا أقوم، أو كنت ألوى فأنا ألوم، أو كنت أطرى فأنا أطرب، أو كنت أعتى فأنا أعتب، أو كنت أقضى فأنا أقضب[62].

قال السيف: كيف لا أفضلك والمقرّ الفلاني شادّ أزري.

قال القلم: كيف لا أفضلك وهو عزّ نصره وليّ أمري.

قال الحكم بين السيف والقلم: فلمَّا رأيتُ الحجتين ناهضتين، والبيّنتين متعارضتين، وعلمتُ أنّ لكلّ منهما نسبة صحيحة إلى هذا المقرّ الكريم، ورواية مسندة عن حديثه القديم؛ لَطَّفْتُ الوسيلة، ودقّقت الحيلة، حتّى رددتُ القلم إلى كِنِّهِ، وأغمدت السيف فنام ملءَ جفنه، وأخَّرتُ بينهما الترجيح، وسكتُّ عمّا هو عندي الصحيح، إلى أنْ يحكم المُقِرُّ بينهما بعلمِه، ويُسَكِّن سَوْرة غضبهما الوافر ولجاجهما المديد ببسط حِلْمِه.

مقامة تُسمَّى الحُرقة للخرقة

إنشاء الإمام زين الدين عمر بن مظفر ابن الوردي قاضي حلب المعروف بالرياحي، وهو أول مَن ولي قضاء المالكيَّة بحلب.

بسم الله الرحمن الرحيم، أمَّا بعد حمد الله الذي لا يُحمد على المكاره سواه، والصلاة على سيدنا محمد الذي خاف مقام ربِّه، وعُصم عن اتّباع هواه، وعلى آله وصحبه الذين بذل كلّ منهم في صون الآية قواه، وسلمت صدورهم من فساد النيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فإنّ نصيحة أولياء العزم تلزم، والتنبيه على مصالح العباد قبل عموم الفساد أحزم، والمتكلّم لله مأجور، والظالم ممقوت مهجور، وتحسين الكلام لدفع الضُرّ عبادة، والنثر والنَّظْم للذبّ عن أهل الدين من باب الحسنى وزيادة، وجرحة الحاكم للأعراض بالأغراض صعبة، إذْ نصَّ الحديث النبوي أنّ حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة، ومُخرِقُ حرمته مذموم، ولحم العلماء مسموم.

وهذه رسالة أخلصتُ فيها النيّة، وقصدت بها النصيحة للرعاة والرعيّة، أودعتها في جوهر فكر كلّ ثمين، وناديتُ بها على مُزيل ظُلَم أبناء جنسي، مناداة اللَّحِم السمين، لكنْ جنَّبْتُها فُحشَ القول إذ لست من أهله، وخلدتها في ديوان الدهر، شاهدة على المسيء بفعله، ورجوتُ بها الثواب، وتحرّيت فيها الصدق والصواب، نصرة للمظلوم، وغيرة على حملة العلوم، وسمّيتها الحُرقة للخُرقة، فقلتُ:

اعلموا يا ولاة الأمر، ويا ذوي الكرم الغمر، أبقاكم الله في مصر للأمَّة، ووفقكم لرفع الإصر وبراءة الذمة، إنّ حلب قد نزعت الزبدة ووقعت من ولاية التاجر الرياحي في خُسْر وشدّة، قاض سُلِبَ الهجوع[63]، وسكب الدموع، وأخلف السِّرْب[64]، وكدَّر الشُّرب، بجرأته التي طَمَتْ وطَمَّتْ،

وعاميته التي عَمَّتْ وغَمَّتْ، وفتنته التي بلغت الفراقد، وأسهرت ألف راقد، ووقاحته التي أذهبت الألباب، وأخافت النُّطَفَ في الأصلاب، فكم لطَّخ من زاهد، وكم أسقط من شاهد، وكم أرعب بريئًا، وكم قرَّبَ جريئًا، وكم سعى في تكفير سليم، وكم عاقب بعذاب أليم، وكم توسّط بها عند الألباب، حشر النائب على مَن قيل إنّه حضر الخمر، وحمله على أن قرعه بالمقارع حتى قُضي الأمر، وامتنعت الأمراء من الشفاعة، وظنوا هم والنائب أن هذا امتثال لأمر الشرع وطاعة:

يا حاملَ النائبِ في حكمهِ

أنْ يقتل النفس التي حُرّمتْ

غشَشْتَهُ واللهِ في دينِهِ

بُشْرَاكَ بالنارِ التي أُضْرِمَتْ

أسقطَ في يوم مشهود، تسعةً من أعيان الشهود، فو الله لو كانوا من غنم رباح، ما سمح بهذه العدة للذباح، وهذا مقت وأيّ مقت، ما سمعنا بمثله في وقت، أتسلم أرباب البيوت، من هذا الرجل المبهوت؟ {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ} [التوبة: 122]، من يذم هذا البزاز الجريء على تخريق الخرقة:

سحقًا لقاضٍ مالكيٍّ سطا

بتسعةٍ أكبر مَن فينا

وإنْ أعرناهُ لها سكتةً

ألحقَ بالتسعةِ تسعينا

سبب إسقاطه لهؤلاء النفر، أنّه أقرّ عندهم أول مدته من السفر، بأن قرابغا[65] أعطاه ثلاثة عشر ألف دينار، ووكله ليشتري بها ما يرضاه من العقار، فلما مات قرابغا، عاش الوكيل وندم على إقراره عندهم، فبدرهم بالتنكيل، فهيهات هيهات، فهذا المحو عين الإثبات[66]، لهذا أكبر الحال، وأسفت القلوب أنّه أكل المال، أسقط التسعة قهرًا، ونادى عليهم جهرًا، وشاور على تطويفهم في الأسواق والجامع، لولا منعَهُ من ذلك مانع، هذا من غير إحضار لهم ولا إعذار، ولا تقدم دعوى ولا

إنذار، ولا تظلم من متظلّم، ولا كلمة من متكلّم، إلَا سطوة وعتوًا واستكبارًا في الأرض، وعلوًّا وخوفًا على الدرهم والدينار، بل مكر الليل والنهار.

ولما ظهر زبدة[67] الذاهبة، التي تنثلم منها فاس[68]، وتتباعد عنها دانية[69]، وتنفر من قبحها تونس، ويحتجب حياء منها ابن الحاجب، ويستوحشها ابن يونس؛ عُقِد مجلس بدار العدل لكشف الظلامة، وطيّ هذا الجَور المنشور بغير علامة، فقلنا له: سَمِّ لنا مَنْ شَهِد على الشهود، فأبى أنْ يسمِّي، وقال قضى الله عليه: قضيتُ فيهم بمذهبي، وحكمتُ فيهم بعلمي، فقلنا: يا نائمًا على السُّرى، الجرح لا يُقبل إلّا مفسَّرا، وإنْ كان لك أنْ تجرحهم، فليس لك أنْ تذبحهم وتفضحهم، يا قليل الفهم، مَن يساعدك على هذا الوهم؟ هذا مُحرَّم لم يبحه مبيح، ومحاسن الإسلام تأبى هذا القبيح. قال: إنْ لم تركنوا إليَّ، فاستفتوا المالكيّة في دمشق عليَّ، فأخرنا اللوم، وطالعنا كتب القوم، فوجدنا في مشاهير كتبهم نقلًا محقّقًا، أنَّ القاضي لا يقضي بعلمه مطلقًا، وأنّه إذا شهد عنده مَن يعلم عليه جرحه، رفع الأمر إلى مَن فوقه، وأبدى له شرحه، فكابر وتأوَّل، واعتمد على الفجور وعوّل، وزاد في المدافعة، وخوَّف بالشرّ والمرافعة، وأطلق لسانه في الأعيان ولم يقيِّد، وقلّب رأسًا لم يكن رأسَ سيِّد، ولمَّا بلغ المالكية بدمشق هذه الواقعة المستعظمة، أصغروا قَدْره عنها، وقالوا: {كَبُرَتْ كَلِمَةً} [الكهف: 5]، واستحلّوا سَبَّهُ وشتمهُ، واستقلوا عقله وعلمه، وكتبوا إليه: أنْ يا مغلوب، لقد بغَّضْتَ مذهب مالكٍ إلى القلوب، وقطعتْ المذاهب الأربعة عليه بالخَطَاء، وزالت بهجته عند الناس، وانكشف الغطاء، ثمّ من المفتين مَن لامه على ذلك وعنَّفَ، ومنهم مَن علَّق على تقبيح ذلك وصَنَّف، ثمّ سُئلت بدمشق اليهود والنصارى، وإنْ كانوا عن الحقّ حَيارى، هل يجوز في دينهم المنسوخ مثل هذا التخجيل، أم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل؟ فأقسموا بالله جهد أيمانهم، إنّ ذلك لم يكن في أديانهم، وناهيك بخَلَلٍ، تستقبحه كلّ المِلَل، فقبح الله مَن أصبح بسهام الأغراض، إلى مصون الأعراض في الرامين، وقال: مَنْ أحوج المسلمين، إلى سؤال المغضوب عليهم والضالين:

أبرأ إلى الرحمن من بهتانه

وفجورِهِ وعُتُوِّهِ المتزايدِ

مَن ذا يجيزُ قضاء قاضٍ جاهلٍ

بالعلمِ في هذا الزمانِ الفاسدِ

وأمَّا قول إمامنا الشافعي في أُمّه[70]: "لولا قضاة السوء لأجزت للقاضي أنْ يقضي بعلمه".

قُلنا له دعْ أمورًا

مستهجناتٍ لمثلكْ

فقالَ أقضي بعلمي

قُلنا ستقضي بجهلِكْ

ثمّ فسَّقَ مفتيًا في الدين، وفضح خطيبًا على رؤوس المسلمين، ومن بُغْضهِ هذا الخطيب، أمر من لطخ منبره بضدّ الطيب، الله أكبر، آذى حتى الخطيب والمنبر، لقد بالغ في الختل[71]، {وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: 191]:

من انتهى طيشه في المُحْرَمات إلى

هذا المقام عليه غضبة الباري

ولست عن مالكٍ أرضى نيابتَهُ

عن خازن العلم أو عن خازن النارِ

هذا جزاء المنسلك، تحت آراء عبد الملك، ومَن البومُ دليله، فالخراب مقيله:

امتلأتْ مِن ذهبٍ أكياسُهُ

وقلبُهُ مُمْتَلِئٌ من دَغَلِ[72]

ما هو إلَّا حيَّةٌ برقها

بالسمِّ هذا المغربي الزغلي[73]

لقد أوقع الناس في الفتنة في بحر عجاج، فدعوا عليه وعلى عبد الملك، ولولا عبد الملك ما استطال هذا الحجَاج، قاضٍ يقول القول ثمّ ينكره، ويذمّ الشخص في المجلس ويشكره، ويحب آيات الردة والكفر، لحبّه في الدنانير الصفر:

حاكمٌ يصدرُ منهُ

خلف كلّ الناسِ حَفْرُ

يتمنّى كُفْرَ شخصٍ

والرضى بالكُفْرِ كُفْرُ

ما أولى أحكامه بالانتقاض، وما أحقّه بقول السحرة لفرعون: {فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ} [طه: 72]، ولولا العافية لتوهّمت أنَّ (ما) ههنا نافية:

ولو ولَّوا قليلَ الفقهِ فيهِ

مداراةٌ ودينٌ ما جزعنا

وكان يهون ما نلقى ولكنْ

تعالَوْا فانظروا مع مَن وقعنا

ثم إنّه على عامية نفسه وجهلها، ينتقص العلوم ويضع من أهلها:

اللهَ اللهَ لا تبقوه في حلب

يا أهلَ مصرَ وفينا راقبوا اللهَ

فَدْمًا يذمُّ فنونَ العلمِ محتقرًا

بها ومَن جَهِلَ الأشياء عاداها[74]

لقد عذَّب العذبة، وصدَّق الكَذَبَة، يستخفُ الأثقال، ويحكم بما لا يعلم ليقال:

رأى نفسَهُ أخَّرَتْ في العلوم

فرامَ التقدُّمَ بالجبروتِ

عديمُ الهباتِ عظيمُ الهَناتِ

قليلُ الثَّباتِ كثيرُ الثبوتِ

ستر اللهُ هذه المدينة من هؤلاء الأدوان[75]، ونزّه عنه مذهب مالك برحمة منه ورضوان:

قاضٍ عن الناسِ غيرُ راضي

مباهتٌ غالطٌ مغالطْ

يكذبُ عن مالكٍ كثيرًا

ويُسْقِطُ الناسَ وهو ساقطْ

عامل أوساطَ الناسِ معاملة الأطرافِ، وأشرف أذاه على العذراء والأشراف، أتلف الأملاك والمكاتيب، بما اعتمده في حقّ الشهود من الأكاذيب، فكم صاحب مكتوب يبكي على حاله، كما أوتي كتابه في شماله:

تَلِفتْ مكاتيبُ الأنامِ بفعلِهِ

وأبانَ عن طيشٍ وكثرةِ مخْرَقهْ

يرمي الأكابرَ والأصاغرَ كاذبًا

بالكُفْرِ أو بالفسْقِ أو بالزندقهْ

هلَّا قرأ هذا القاضي الجديد: {وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ} [البقرة: 282].

لقد آذى الشهود بغير حقٍّ

فأيّ الناس ما رحم الشهودا

أيرضى المسلمون لهم بهذا

وقد سرَّ النصارى واليهودا

ولقد بلغنا وهو من العبر، أنَّ جيراننا من أهل شيس[76] سرّهم مبتدأ هذا الخبر:

صاحِبُ شيسٍ سَرَّهُ

فِعَالُ قاضٍ أرعنا

فأحْزَنَ الله الذي

أفرحَ فينا الأرمنا

أذهب حبُّ الذهب ذهنَ ذهنه وأفنى، {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى} [العلق: 6 . 7]:

أهلَ الثنايا أفيكمُ رجلٌ

يقولُ عن نفسِه أنا ابنُ جَلَا

من جَورِ قاضٍ غِناهُ أفسدَهُ

وكثرةُ المال تُفسِدُ الرجلا

مطالعته في البيت، في عرض جريدة الصابون والزيت:

وتاجرٍ قَلَّدوهُ حُكْمًا

كلُّ الرعايا عليهِ لا لهْ

له فِعالٌ مدوَّناتٌ

قد أغضَبَتْ صاحِبَ الرسالهْ

احتكر الأقوات في أوقات الغلا، فقال فيه بعض الفضلاء:

كيف التخلّصُ من قاضٍ مباحثهُ

قطنٌ وقمحٌ وأصنافٌ وصابونُ

قد جاء يحتكرُ الأقواتَ في حَلَبٍ

على غَلا السِّعر والحَكَّارُ ملعونُ

كمْ نهتهُ زوجتُه عن اللجاج، فتهدّدها بالضرب والإخراج:

وقاضٍ لنا لم يلِنْ

وزوجَتُهُ لانتْ

فيا ليتَهُ لم يكُنْ

ويا ليتها كانتْ

إذا فرغ من مجلس قضائه، اشتغل بمعاقبة أهل بيته والغلظة على أقربائه، أفسدَ ذات البين، وسلط المديون يشكو على رب الدين، وصار الطالبُ المطلوبَ، وهذا الفقهُ المقلوب، على أنَّ في مذهب الشافعي الزاهي، أنّ مسألة العينة ليست من المناهي، وهي قوام العامة والجيش، ولكنْ لا ذوق لمَن غلب عليه الطيش:

وما قرا وثيقةً إلَّا وقال باطلهْ

وذا دليلٌ أنَّهُ ليس لهُ معاملهْ

ففي عزله عنَّا أجرٌ غير ممنون، وأيّ حاجة بالعقلاء إلى مجنون؟!

ولا أخذ الرحمنُ مِصْرًا ولا

أزالَ عنها حُسْنَ ديباجهْ

ولَّوا علينا قاضيًا ثالثًا

ما كان للناسِ به حاجة

هذا قاضٍ متعصب، قد أسكره الذهب والمنصب، فلا يفرق بين الأرض والسماء، ولا يعرف عموم العامة من خصوص العلماء، حركاته وسكناته مكتوبة عليكم، فلا ندري أنشكوكم إلى الدهر، أم نشكو الدهر إليكم.

غاية علمه إطالة السكوت، وقول الحاضرين له دائم الثبوت، سكناتهُ غير متناهية، وإذا تكلَّم ففي داهية، الويلُ له إنْ لم يتُبْ، ويجهل حتى أسماء الكتب، أذاه شامل، وشرّه كامل، ومنهاجه عسر.

مقدام ظلوم، جاهل بجميع العلوم، لا يعرف في الفقه الطلاق من التطليق، ولا في النحو الإلغاء من التعليق، ولا في التفسير أسباب النزول، ولا في القراءات حجج، {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم: 46]، ولا في اللغة القدح من الكاس، ولا في الأصلين؛ الجوهر الفرد، والجَليّ القياس، ولا في المنطق الضرب المنتج من العقيم، ولا في الحديث الصحيح من السقيم، ولا في العروض تفاعيل الدوائر، ولا في القوافي المتدارَك من المتواتر، ولا في التصريف المثال من الأجوف، ولا في الطبّ أي الأمراض أخوف، وهو مع الجهل، وكونه غير أهل، يؤذي نجوم العلوم الطالعة والغاربة، ويعامل الناس بأخلاق المغاربة، ويتطاول على كلّ طائل، بمنصب هو الظلّ الزائل.

ويرعد ويضطرب، ويبعد ويقترب، حتى كأنه قتل عنترة، أو فتح قلعة مسترة، يتأوَّهُ على الشرع من بعده، ويزيد في الشريعة سياسات من عنده، الويل له من هذه الأعمال، كيف يحتاج دين الله إلى إكمال، لقد وقع في عار، لا تغسله مياه الأنهار. لمّا رأى خلو مجلسه، وقلَّة مؤنسه، وانقطاع الأعيان عن داره، وإهمال الخاصّة له لصغر مقداره، قال له رأيه الفاسد: إلى متى أنت مهجور كاسد، فازجرْ وانتهر، وقبّح حتى تشتهر. فآذى ونادى، وجرح وما داوى، فطفر الناس عليه بهذه الطفرة، وما زادهم عنه إلّا نفرة، وكشفوا ظلَّتهُ، وعرفوا علَّتهُ:

حالُ النُّحاةِ على العمومِ تميَّزتْ

عندي لأنَّ القومَ أهلُ خصوصِ

من أجلِ قاضٍ قد رمَوْهُ بعِلَّةٍ

ودعوه بالمستثقلِ المنقوصِ

إذا جلس خِلْتَ غُولةً جالسة، وإذا تكلَّم مطيلسًا، قلت جاء البرد والطيالسة[77]، لا قراءة له ولا قِرى[78]، فليتَ العيون اكتحلت منه بأميال السرى، يحب من القرآن: {أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا} [التوبة: 49]، ومن الحديث: (أباهي بكم الأمم حتّى بالسقط)، ومن الفقه سقوط يد السارق بآفة، ومن النحو سقوط التنوين بأل والإضافة، ومن الشِّعر:

وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ

إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاعِ

يتنفس على الناس الصعداء، ويؤذي الأشقياء والسعداء، لقي بعض الناس منه ما لقي، وهو عازم على ما بقي:

لقد أصبحَ الباقون منه على شفا

متى استنشدوا الشِّعرَ القديَم يقولوا

يهونُ علينا أنْ تُصابَ جُسومُنا

وتسلمُ أعراضٌ لنا وعقولُ

وماذا أقول فيمن حمله جهله على أنْ قال في ابن السَّفاح وابن العديم ما هو أهله، أحسن الله إليهما، ورضي عنهما، ولولا حظّ نفسه، وظلمة حسّه، لاكتسب من رئاستهما، واقتدى بعفَّتهما عن الأموال والأعراض وحسن سياستهما، لكنَّه أعمى البصر والبصيرة، سيِّئ الظن خبيث السريرة، يؤذي الناس ويقول: لا تؤذوني، وينادي مالُ قرابغا في يده: بالله خذوني:

بالله يا أولياءَ مصر

خذوه من عندنا بسترِ

متى رأيتم وهل سمعتم

بأنَّ قاضي القضاةِ جمري[79]

يقضي عمره في الأسواق والأسفار، ومرافقة أبي حيَّة من التجار، ما أقدره على التنقير! وما أسهل عليه الفسق والتكفير! فلا قوّة لنا من جمرته[80] ولا حول، {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ} [النساء: 148]:

يا قومنا إنَّ الفسادَ قد غَلَبْ

وخافتْ الأعيانُ سوءَ المنقلبْ

ومَن نشا بين الحمير والجَلبْ

كيف يكونُ قاضيًا على حلبْ[81]

ثمَّ من أعظم ذنوبه، وأكبر عيوبه، أنَّ هذا الفرد الظالم، حوله من المغاربة جمع غير سالم، وهم في السرّ يتوقعون قيام الحرب، ويطمعون أنّ مصر سيملكها أهل الغرب:

قال الرَّباحيُّ سِرًّا

مصرًا إليها إليها

كنّا بمصر وإنَّا

لعاملونَ عليها

لا عاش ولا بقي، ولقي من الخيبة ما يتَّقي، فهذه الدولة مطاعة، إلى قيام الساعة، على رغم قاضٍ إذا حكم جَارَ، ولو على الجار، وإنْ غضب أو صال، فرَّقَ الأوصال، يوقع العظيمة، ويعظم الوقيعة، ويشارع الخليفة، ويخالف الشريعة، يدع الإيثار، ويؤثر الدَّعة، ويختار المرابع المذهَّبة على المذاهب الأربعة:

لقد ولَّيتُمُ رجلًا

بخفضِ الناس يرتفعُ

ففرَّق بيننا سَفَهًا

وعند اللهِ نجتمعُ

فأقدموا في عرضه وإنْ كان لا يقدح في زناد، وافصلوه عنا فقد ألبس، والفصل في النحو عماد، والغوا فعله المتعدي بفعلكم اللازم، وسكَّنوا حركاته العارضة بدخول الجوازم، وأسقطوا هذه الفضلة من البين، وانصبوه على التحذير لا على الإغراء، فشتّان بين النّصبين، وعاملوا هذه اللحنة في النحو بالمنع من التصريف، ونكِّروا معرفته بنزع الولاية، فالولاية آلة التعريف، واخفضوا هذا العَلَم المنصوب على الذم، وأدخلوا أفعاله الناقصة والمقاربة في باب كان وكاد، واحذفوه فما هو عمدة ولا أحد ركنَي الإسناد، واصرفوه عنَّا فما له على معرفته ووزن فعله دليل، وركبوه من حلب تركيب سيبويه فهي مدينة الخليل.

realpage0075x

في كتاب الفرق الإسلامية لابن أبي الدم[82]

لمَّا اشترى الخليفة الحجر الأسود من القرامطة بخمسين ألف دينار، وقيل بثلاثين ألف دينار؛ جهَّز إليهم عبد الله بن عكيم المُحدِّث وجماعة معه، فقال عبد الله بن عكيم: إنَّ لنا في حجرنا علامتين، لا يسخن بالنار، ولا يغوص في الماء، فأحضر ماء وناراً، وألقى الحجر في الماء، فغاص، ثم ألقاه في النار فحمي، وكاد يتشقّق. فقال: ليس هذا بحجرنا، ثم أُحضر آخر مضمَّخ بالطيب، مغشى بالديباج، إظهارًا لكرامته، ففعل به عبد الله بن عكيم كذلك، ثمّ قال: ليس هذا بحجرنا. فأحضر الحجر الأسود بعينه، فوضعه في الماء، فطفا ولم يغص، ثم وضعه في النار فلم يسخن. فقال: هذا حجرنا، فعجب أبو طاهر القرمطي، وسأله عن معرفة طريقه. فقال عبد الله بن عكيم: حدثنا فلان عن أبي فلان أنّ النبي قال: (الحجر الأسود عين الله في أرضه، خَلَقه تعالى من درة بيضاء في الجنة، وإنّما اسودَّ من ذنوب الناس، يُحشر يوم القيامة وله عينان ينظر بهما، ولسان يتكلّم به، يشهد كلّ مَن استلمه أو قبّله بالإيمان، وأنّه حجر يطفو على الماء، ولا يسخن بالنار إذا أوقدت عليه).

فقال أبو طاهر: هذا دين مضبوط بالنقل.

قال سلم الخاسر، وسُمّي الخاسر؛ لأنّه ورث مصحفًا فباعه، واشترى بثمنه دفاتر شِعر، مات في حدود الثمانين ومئة:

إذا أذِنَ اللهُ في حاجة

أتاك النجاحُ على رِسْلِه

يفوزُ الجوادُ بحسنِ الثناء

ويبقى البخيلُ على بُخلِه

فلا تسألِ الناسَ مِنْ فضَلِهم

ولكنْ سَلِ الله من فضلِه

قال تقي الدين شبيب بن حمدان:

ومهَفْهَفٍ قسمَ الملاحَةَ ربُّها

فيه وأبدعَها بغيرِ مثالِ[83]

فلخدِّه النعمان روضُ شقائقٍ

ولثغرهِ النظَّامِ عقدُ لآلي

ولطرفِهِ الغَزَّال إحياء الهوى

وكذلك الإحياء للغزَّالي

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر:

يا من رأى غزلانَ رامةَ هل رأى

بالله فيهم مثلَ طَرْفِ غزالِ

روى ابن دريد عن ابن الكلبي قال: كنتُ يومًا عند شرقي بن القطامي[84] فقال: من يعرف منكم أسد بن عبد مناف بن شيبة بن عمرو بن المغيرة بن زيد، وهو من أشرف الناس بعد رسول الله ﷺ، فقالوا: ما نعرفه، قال: هو علي بن أبي طالب، كانت أُمّه سمَّته أسدًا، وأبوه غائب لمّا

ولدته، واسم أبي طالب عبد مناف، واسم عبد المطلب شيبة، واسم هاشم عمرو، واسم عبد مناف المغيرة، واسم قصي زيد.

وقال شرقي: دخلت على المنصور، فقال: يا شرقي، علامَ يُزارُ المرء، فقلت: يا أمير المؤمنين، على خِلالِ أربع: على معروفٍ سلف، أو مثله يؤتَنف، أو قديم شرف، أو علم مستطرَف، فما وراء ذلك فولوع وكلف.

قال عبادة بن ماء السماء شاعر الأندلس[85]:

لا تشكوَنَّ إذا عَثَرْ

تَ إلى صديقٍ سُوءَ حالِكْ

فيُريك ألوانًا من الـ

إذلالِ لم تخطُرْ ببالِكْ

إيَّاكَ أن تدري يميـ

نُكَ ما يدورُ على شمالكْ

اصبر على نُوَبِ الزما

ن وإنْ رَمَتْ بكَ في المهالِكْ

وإلى الذي أغنى وأقـ

نى اضرعْ وسَلْهُ صلاحَ حالِكْ

الورقات

ذكر الصلاح الصفدي في ترجمة التاج السبكي أنّه سمَّى كتاب الطبقات بالورقات، وأنَّه كتب عليها تقريظًا، وقف المملوك على هذه الورقات، وصعد في معارج التأمّل إلى هذه الطبقات، وباشر نظرها، وعلم ما لفوائدها في كلّ وقت من النفقات، فرأى أوراقها المثمرة، وغصونها المزهرة، وراقت له ليالي سطورها التي هي بالمعاني مقمرة، وشهد برق فضائلها اللهاب، وعلم من جمعها أنّ لكل مذهب عبد الوهاب:

لقد أحيى الذينَ تضمنتهم

وأجلسهم على سُررِ السرورِ

فأصحابُ التراجمِ في طباقٍ

أطلوا من شبابيكِ السطورِ

فما هي في طبقات، لكن بروج كواكب، وما هي سطور، بل سطور مواكب، لقد أعجبه همَّة من حرّرها، وأسَّس قواعدها وقررها، وحصل بهذا الولد النجيب الياس، من فضل القاضي إياس، وكونه تقدّم في شبابه على كهول أصحابه، فهذا أصغر سنًا، وأكبرُ منا منًّا، وقد شهد له العقلُ والنقل، بأنّه فتيُّ السنِّ، كهل العلم والحِلم والعقل، والله يمتع الزمان بفوائده، ويرقيه في الدين والدنيا إلى درجات والده.

قلت: ذكر الصلاح الصفدي أنَّ محمد بن داود بن الجراح صنَّف كتاب الورقة في أخبار الشُّعراء، وسمَّاه بذلك، لأنَّ ترجمة كلّ شاعر في ورقة من غير زيادة، وأنّ الصولي سمَّى كتابه بالأوراق لأنّه بسط ترجمة كلّ واحد في عدَّة أوراق، فالظاهر أنّ ابن السبكي أخذ التسمية بالورقات منه؛ لأنّه بسط التراجم في ورقات وأوسع فيها.

نحوي وإسكافيّ

اجتاز بعض النحاة ببعض الأساكفة، فقال له: أبيتَ اللعن، واللعن يأباك، ورحم الله أمّك وأباك، وهذه تحية العرب في الجاهلية قبل الإسلام، ولكن عليك أفضل السلام، والسِّلم والسَّلم، ومثلك مَن يُعَزُّ ويُكرَم ويُحتشَم، قرأتُ القرآن والتفسير والعنوان، والمقامات الحريرية، والدرة الألفية، وكشاف الزمخشري، وتاريخ الطبري، وشرحت اللغة مع العربية على سيبويه، ونفطويه، والحسن بن خالويه، والقاسم بن كُميل، والنضر بن شُميل، وقد دعتني الضرورة إليك، وتمثّلت بين يديك، لعلّك تتحفني من بعض صنعتك، وحسن رحمتك، بنعل تقيني الحرّ، وتدفع عنّي الشرّ، وأعرب لك عن اسمه حقيقًا، لأتخذك رفيقًا، ففيه لغات مؤتلفة، على لسان الجمهور مختلفة، ففي الناس من كنَّاه بالمداس، وفي عامة الأمم من لقبَّه بالقدم، وإنّي أخاطبك بلغات هؤلاء القوم، ولا إثم عليَّ في ذلك ولا لوم، والثالثة بك أولى، وأسألك أيّها المولى، أنْ تتحفني بسارموزة، أنعم من الموزة، وأقوى من الصوان، وأطول عمرًا من الزمان، خالية البواشي، مطبقة الحواشي، لا يتغيّر عليها وشيها، ولا يروعني مشيها، لا تنفلت إنْ وطئتُ بها جروفًا، ولا تنفلت إنْ طحت بها مكانًا مخسوفًا، لا تَلْتَوِق من أجلي، ولا يؤلمها ثقلي، ولا تمترق من رجلي، ولا تتعوج ولا تتلقوج، ولا تنبعج ولا تنفلج، ولا تقبُّ تحت الرِّجل، ولا تلصق بخبز الفجل، ظاهرها كالزعفران، وباطنها كشقائق النعمان، أخف من ريش الطير، شديدة البأس على السَّير، طويلة الكعاب، عالية الأجناب، لا يلحق بها التراب، ولا يغرقها ماء السحاب، تصر صرير الباب، وتلمع كالسراب، وأديمها من غير جراب، جلدها من خالص جلود المعز، ما لبسها ذليل إلَّا افتخر بها وعز، مخروزة كخرز الخردفوش، وهي أخف من المنقوش، مسمَّرة بالحديد ممنطقة، ثابتة في الأرض الزلقة، نعلها من جلد الأفيلة، الخمير لا الفطير، وتكون بالنزر الحقير، فلما أمسك النحوي من كلامه، وثب الإسكافي على أقدامه، وتمشى

وتبختر، وأطرق ساعة وتفكَّر، وتشدَّد وتشمَّر، وتحرَّج وتنمَّر، ودخل حانوته وخرج، وقد داخله الحنق والحرج. فقال له النحوي: جئت بما طلبته؟ قال: لا، بل بجواب ما قلته، فقال: قل وأوجز، وسجِّع ورجِّز. فقال: أخبرك أيّها النحوي[86]: إن الشرسانحروي، شطبطاب المتقرقر والمتقبعقب، لما قرب من قري، فوق الألقرتقنقف، طرق زرقنانشراسيف قصر القشتبتع من جانب الشرشسك، والديوك تصهل كنهيق زقازيق الصولجانات، والخرفوق الفرتاج يبيض القرمنطق، والزعربر جوا جليبسوا، ويا خير من الطير تجنح بجمشدك، بسمرد لو خاط الركبنبر، شاع الجبربر، يحفر الترتاح بن بسوساح، على نوى بن شمندخ، بلسان القرداق، ماز كلوخ إنك كاكيت، أرس برام المسلنطح بالسمردلند، والزئبق بحبال الشمس مربوط، فلعل بشعلعل مات الكركندوس، أدعوك في الوليمة يا تيس، تس يا حمار يا بهيمة، أعيذك بالزحزاح، وأبخرك بحصى لبان المستراح، وأرقيك برقوات مرقاة قرقرات البطون، لتخلص من داء البرسام والجنون.

ونزل من دكانه مستغيثًا بجيرانه، وقبض لحية النحوي بكفيه، وخنقه بإصبعيه حتى خَرَّ مغشيًّا عليه، وبربر في وجهه وزمجر، ونأى بجانبه واستكبر، وشخر ونخر، وتقدَّم وتأخَّر، فقال النحوي: الله أكبر الله أكبر، أأنت تجنَّنت، فقال له: بل أنت تخرَّفت. والسلام.

الكيمياء والسيمياء

قال القاضي بهاء الدين إبراهيم بن أبي اليسر التنوخي: بعثني الملك العادل أبو بكر بن أيوب رسولًا إلى السلطان علاء الدين صاحب الروم، فبالغ في إكرامي، وأجلسني معه على التخت، فجرى يومًا بين يديه ذكر الكيمياء والسيمياء، فقلت أنا: ما لهما صحة، فقال السلطان علاء الدين: لا تقل هكذا، فما أحدثك إلّا بما جرى لي:

كنتُ في بعض السنين سائرًا فلقيني رجل مغربي في زي الفقراء، فوقف لي وسلَّم عليَّ وقال: خذني إلى عندك أفدك فائدة عظيمة، فغلب على ظنِّي صِدقه، فأسكنته معي في هذا المكان، وبالغتُ في إكرامه، وطلب منّي إحضار أصناف عيَّنها، أحضرتها له، وشرع في العمل، فعمل لي شيئاً كثيرًا من الذهب المصري، إلى أنْ أذهلني. ثمّ بعد ذلك طلب مني دستورًا[87] في السفر، فامتنعت ضنّا به، ورغبة فيه، فلما طال طلبه، وطال منعي، غضبت يومًا وكدت أقتله، فجذبت السيف وهممت به. فقال: ولا بدّ. ثم صفق بيديه وطار في الهوى، وخرج من هذا الشباك.

نحويّ وقصّاب

وقف بعض النحاة على قصَّاب فقال: هذا اللحم من الضأن الفتي، أمْ الماعز الثني؟ قال: هو من خيار الضأن. قال: فذبحته لعرض أم لمرض؟ قال: حتى أتبلغ أنا وعيالي منه. قال: أفكان ذكراً ذا خصيتين، أم أنثى ذات حلمتين؟ قال: كان ذكرًا ينطح الحائط يرميه، قال: أفكان يمجّ الماء بشدقيه، أم يمصّه بشفتيه؟ قال: كان يدلّي زلومه في الماء ويشرب حتى يشبع. قال: أفكان مرعاه الشيح والعيزران، أم العصف والريحان؟ قال: كان يرعى من نبات الأرض أي شيء كان. قال: أسننتَ شفرتك، وحددتَ حديدتك؟ قال: جعلتها لو نزلت على رقبة الأبعد لقطعتها. قال: فبدأت بالبسملة وأظهرتَ الحيعلة التي هي على وزن فيعلة، وقيل فعللة، والصحيح الأول؟ قال القصاب لغلامه: هاتِ الجلد حتى أقطعه على أكتاف هذا النحس، الذي بطَّلنا وقطع رزقنا اليوم. فلمَّا سمع النحوي ذلك شتم وهرب.

في تاريخ الصلاح الصفدي

منامات

دخل الليث بن المظفر على علي بن عيسى، وعنده رجل يقال له حماد، فجاءه رجل فقص رؤيا رآها لعلي بن عيسى، فهَمَّ حماد أنْ يعبرها. فقال الليث: كفَّ، فلستَ هناك، فقال علي: يا أبا هشام: وتعبرها؟ قال: نعم، وكانت الرؤيا: كأن علي بن عيسى مات، وحمل على جنازة، وأهل خراسان يتبعونه، فانقض غراب من السماء ليحمله، فكسروا رجل الغراب. فقال الليث: أمَّا الموت، فهو بقاء، وأمَّا الجنازة فهي سرير وملك، وأمَّا ما حملوك فهو ما علوتهم، وكنت على رقابهم، وأمّا الغراب فهو رسول، قال تعالى: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا} [المائدة: 31]، يقدم عليك فلا ينفذ أمره، فما مكثوا إلَّا يومين أو ثلاثة، حتى قَدِم رسول من عند الخليفة يحمل علي بن عيسى، فاجتمع قُوَّاد خراسان، وأثنوا عليه خيرًا، ولم يتركوه يُحمل. وقالوا: نخشى انتقاض البلاد، فبقي.

قال ابن الأثير صاحب جامع الأصول، والنهاية في غريب الحديث، وشرح مسند الشافعي، وغير ذلك: كنت أشتغل بالأدب على ابن الدهان النحوي البغدادي بالموصل، وكان يأمرني بقول الشِّعر، وأنا أمتنع من ذلك، فبينا أنا ذات ليلة نائم، رأيت الشيخ في نومي وهو يأمرني بقول الشِّعر، فقلتُ: ضع لي مثالاً أعمل عليه، فقال:

جُبِ الفلا مُدمنًا إنْ فاتكَ الظفرُ

وخُدّ خدّ الثرى والليلُ معتكِرُ

قال: فقلت أنا:

فالعزُّ في صَهواتِ الخيلِ مركبُهُ

والمجدُ يُنْتِجُهُ الإسراءُ والسَّهَرُ

فقال لي: أحسنت، هكذا فقل، فاستيقظت فأتممتُ عليها نحو العشرين بيتًا.

قال محمود بن الحسن الوّراق:

فمن بين باكٍ له موجَعٌ

وبين مُعَزٍّ مُغَذٍّ إليهِ

ويَسْلُبُهُ الشيبُ شَرْخَ الشبابِ

فليسَ يعزيهِ خَلْقٌ عليهِ

وقال:

تعصي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ

هذا مُحالٌ في القياسِ بديعُ

لو كان حُبُّكَ صادقًا لأطعتَهُ

إنَّ المُحِب ّ لمن يُحِبُّ مُطيعُ

وقال:

تعَزَّ بحسنِ الصَّبرِ عن كلّ هالكٍ

ففي الصبرِ مَسْلاةُ الهمومِ اللوازِمِ

إذا أنتَ لم تسْلُ اصطبارًا وحِسْبةً

سلوتَ على الأيامِ مثلَ البهائمِ

وقال:

إذا كان شكري نعمةَ اللهِ نعمةً

علَيَّ لهُ في مثلِها يجبُ الشكرُ

فكيفَ وقوعُ الشكرِ إلَّا بفضلهِ

وإنْ طالت الأيامُ واتصلَ العُمْرُ

إبليس والجُنيد

سمعت أبا القاسم الجُنَيد بن محمد الصوفي يقول في بغداد: ما زلتُ أطلب إلى الله في صلاتي خمس عشرة سنة أنْ يريني إبليس، فلمَّا كان يوم نصف النهار في صيف، وأنا قاعد بين البابين أُسَبِّح، إذ دُقَّ عليَّ الباب، فقلت: مَن ذا؟ قال: أنا. قلت الثاني: مَن ذا؟ قال: أنا. قلت الثالث: مَن أنت؟ قال: أنا. قلت: لا تكون إبليس؟ قال: نعم. فمضيت ففتحت له الباب، فدخل عليَّ شيخ عليه بُرنُس من الشَّعر، وعليه قميص من الصوف، وبيده عكازة، فجئت أقعد مكاني بين البابين. فقال لي: قُمْ من مجلسي، فإنَّ بين البابين مجلسي. وخرجت، فقعد. فقلت: بِمَ تستضلّ الناس؟ فأخرج لي رغيفًا من كُمِّهِ، وقال لي: بهذا. فقلت: بمَ تُحَسِّنُ لهم السيئة؟ فأخرج مرآة، فقال: أريهم سيئاتهم حسنات بهذه المرآة. ثم قال لي: قلْ ما تُريد، وأوجز في كلامك. فقلت: حيث أمرك الله بالسجود لآدم لِمَ لم تسجد؟ قال: غيرة منّي عليه، أسجد لغيره. وغاض مني ولم أره.

من كتاب الصوفيّة

رُوي عن يحيى بن معاذ الرازي قال: أهل الجنة يُرفع عنهم كلّ شيء، ما خلا ثلاثة: الحُبّ لله، والحُبّ في الله، والحمد لله.

عن أبي عمرو الرقي: أنّه سُئل عن الفرق بين الفقر والتصوف، فقال: الفقر حال من أحوال التصوف. عن أبي بكر الدقاق قال: عجز العلماء عن الفرق بين المداراة والمداهنة.

عن أبي بكر بن يزدانيار، قال: إنَّ الله تعالى أحبّ ثلاثة، وأبغض ثلاثة، أحبَّ الإيمان، والطاعة، والعلم، وأبغض الكفر، والمعصية، والجهل، فسلَّط الغزاة على الكفار، وسلَّط العلماء على الجهال، وسلَّط الأمراء على العصاة، وإلى القيامة على هذا يكون.

سُئِل يحيى بن معاذ عن الشهقة مِمَّ تكون؟ فقال: الدارج ربّما لاح له في الغيب درجة ليست هي له، فيرتاح فيشهق. قيل له: فهل يكون في ذلك صادقًا؟ قال: لا، بل يكون سارقًا، والصادق يصحُّ له ذلك عن طريق الهيبة.

عن يحيى بن معاذ قال: مَنْ أحبَّ أنْ يعرف الزهد فلينظر في الحكمة، ومَنْ أحبَّ أنْ يعرف مكارم الأخلاق، فلينظر في فنون الآداب، ومَنْ أحبّ أنْ يستوثق من أسباب المعاش، فليستكثر من الإخوان، ومَنْ أحبّ أنْ لا يُؤذى فلا يؤذينَّ، ومَنْ أحبَّ رفعة الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى.

عن الفضيل بن عياض قال: من عشق الرئاسة لم يفلح، وطغى وبغى.

وعن سري السقطي قال: السَّنَة شجرة، والشهور فروعها، والأيام أغصانها، والساعات أوراقها، وأنفس العباد ثمرتها، وشهر رجب أيام توريقها، وشعبان أيام فروعها، ورمضان أيام قطفها، والمؤمنون قطافها.

سئل الجنيد عن الفرَق بين الصالح والعارف، فقال: كلُّ عارف صالح، وليس كلّ صالح عارفًا.

عن إبراهيم الخواص قال: المُلْكُ المعجِّل سكون القلب، ودعة الجوارح.

حدّث شريح، قال: اشتريتُ دارًا بمئتي دينار، وكتبت كتابًا، وأشهدت عدولًا، فبلغ ذلك عليّ بن أبي طالب، فقال لي: يا شُريح، بلغني أنَّك اشتريت دارًا، وكتبت كتابًا، وأشهدت عدولًا. قلت: قد كان ذلك يا أمير المؤمنين. فقال: إنّه سيأتيك مَن لا ينظر في كتابك، ولا يسأل عن بيّنتك حتى يخرجك منها شاخصًا، ويسلمك إلى قبرك، ولو كنت أتيتني، كتبتُ لك كتابًا على هذه النسخة: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما اشترى عبدٌ ذليل، من ميت قد أُزعج بالرحيل، اشترى منه دارًا تعرف بدار الغرور من الجانب الفاني، في عسكر الهالكين، ويجمع هذه الدار ويشتمل عليها حدود أربعة، الحدّ الأول ينتهي إلى دواعي البينات، والحدّ الثاني ينتهي إلى دواعي المصيبات، والحدّ الثالث ينتهي إلى دواعي البليات، والحدّ الرابع ينتهي إلى دواعي النوى المُرْدي، وإلى الشيطان المُغْوي، وفيه يشرع باب هذه الدار. اشترى هذا المغرور بالأمل، وهذا المزعوج بالأجل جميع هذه الدار، بالخروج من عزّ القنوع، والدخول في ذلّ الطمع، فما أدرك هذا المشتري فيما اشتراه من درك، فعلى مبلبل أجسام الملوك، وسالب نفوس الجبابرة، ومُزيل مُلك الفراعنة، ملك كسرى وتُبَّع وحِمْيَر، ومن بنى وشيَّد، وزخرف ونجَّد، وجمَّع واعتقد، ونظر بزعمه للولد، شحًّا منهم إلى موقف العرض، إذا وُضع الكرسي لفصل القضاء، وخسر هنالك المبطلون، وسمع مناديًا ينادي في عَرَصاتها[88]:

ما أبينَ الحقّ لذي عينينِ

إنَّ الرحيلَ آخرُ اليومينِ

أملى عليَّ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن نظيف شرطًا في شراء بستان من خاطره: هذا ما اشترى فلان بن فلان المريد من سكان المحبة، من فلان بن فلان العارف من أهل الصفوة، اشترى منه بستانًا موضعه في صحراء الأنس محاطًا عليه، فيه نخيل الإيمان، يثمر طلع الطاعات،

وينضج بالإخلاص، وأشجار المعارف، تثمر الإلهام الصافي، ورياحين البرِّ والتقوى، وورد وِرْد الذِّكْر، وسواقي العلم في تربة الخلوة، ويسقى هذا البستان من نهر الوفاء، ولهذا البستان حدود أربعة: الحدّ الأول ينتهي إلى حسن العهد، والحدّ الثاني ينتهي إلى صحراء المَنّ وروضة الشكر، والحدّ الثالث ينتهي إلى فرضة المتحابين بالجلال، والحدّ الرابع ينتهي إلى طريق يؤخذ بها إلى الصدق، وإليه يشرع باب هذا البستان، اشترى منه جميع هذا البستان، بجميع ما سُمَّي، ووُصف في هذا الكتاب ببذل مجهوده من نفسه وماله، والمقام على المحاب، فلا كاره منه عليه، واستفراغ الصدق من لُبِّه، وأنْ يحتمل كلّ واحد منهما عن صاحبه الأذى من نفسه، ومن كلِّ أحد من قِبَلهما، وعلى أنْ لا يتذوَّق هذا المُرِيد علومًا من غير هذا العارف، ويعرض عليه جميع ما يخطر له، ويصبر معه على البلاء والفقر، ولا يتحيز منه الحظوظ، ويعوده إذا مرض هو مع مرضه، وإنْ خطر بباله منه شيء أخرجه من قلبه، ولا يتّهمه على نفسه وماله، وما يصلحه ولا يقطع أمرًا دونه، شهد على إقرارهما بجميع ما في هذا الكتاب في صحة منهما، وجواز أمرهما. شهد على ذلك المصافحة من المباذلة ورفع الحشمة من بينهما، واستعمال الأدب مع رفع الحشمة.

قال: العباس ابن مسروق، كنَّا جماعة من الفقراء في بعض الأسفار، فقام أصحابنا وطابوا، فإذا بديرانيّ قد أقبل وقال: بالدِّين الحنيفية، أَلَا عرفتموني إن هذا مخصوص في دينكم أو معموم؟ قلنا: مخصوص بشرط الزهد في الدنيا. فقال الديراني: قرأت في الإنجيل: إنَّ خواصًا من أمّة محمد، عليه الصلاة والسلام، يتحركون عند السماع بشرط الزهد في الدنيا، لباسهم الصوف، يرضون من الدنيا بالبلغة والكِسرة، أولئك خواص أمَّة محمد، عليه الصلاة والسلام، فأسلم ومشى معنا.

قال أبو جعفر الخلدي: رأيت الجُنيد في النوم، فقلتُ له: أليس كلام الأنبياء إشارات عن مشاهدة؟ فتبسَّم وقال: كلام الأنبياء بناء عن حضور، وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدة.

الأمانات

قال روح القيسي: استودع رجلٌ رجلًا مالًا، وخرج إلى مكة، فلمَّا رجع طلبه فجحده، فأتى إياس بن معاوية، فأخبره، فقال له إياس: أَعَلِمَ أنَّك أتيتني؟ قال: لا. قال: فنازعتَهُ عند أحد؟ قال: لا. قال: فانصرفْ واكتم أمرك، ثم عُدْ إليَّ بعد يومين. فمضى الرجل، فدعا إياس ذلك الرجل، قال: قد حضر مال كثير أريد أنْ أصيِّره إليك، أَفحصينٌ منزلك؟ قال: نعم. قال: فأعد موضعًا للمال، وعاد الرجل إلى إياس، فقال له: انطلق إليه، فاطلب مالك، فإنْ أعطاك فذاك، وإنْ جحدك فقل له: إنّي أُخبر القاضي. فأتى الرجل صاحبَهُ، فقال: مالي، وإلّا أتيتُ القاضي وشكوتُ إليه. فدفع إليه مالَهُ، فرجع الرجل إلى إياس، فقال: قد أعطاني المال، وجاء ذلك الرجل إلى إياس لموعده، فوبّخه وانتهره، وقال: لا تقربني يا خائن.

عن عبد الله بن مصعب: استودع رجل رجلًا كيسًا فيه دنانير، وغاب الرجل، فلما طال الأمر، فتق المستودَعُ الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل في الكيس دراهم، وخيطه، والخاتم على حاله، فقدِم صاحب المال بعد خمس عشرة سنة، فطلب ماله، فدفع إليه الكيس بخاتمه، فلم يقبله، فقال: هذه دراهم، ومالي دنانير، قال: هذا كيسك بخاتمه، فرفعه إلى عمر بن هبيرة، قال لإياس بن معاوية: انظر في أمر هذين، فقال إياس للطالب: ما تقول؟ قال: أعطيته كيسًا فيه دنانير، قال: منذُ كم؟ قال: منذ خمس عشرة سنة، ففضُّوا الخاتم ونثروا الدراهم، فوجدوا ضربَ عشر سنين، وخمس سنين، وأقل وأكثر. قال: أقررتَ أنّه عندك منذ خمس عشرة سنة، وفي الكيس ضرب عشر سنين، وخمس سنين. فأقرَّ بالدنانير، فألزمه إيَّاها.

قيل لإياس لمَّا ولي القضاء: إنَّك تعجل بالقضاء، قال إياس: كمْ لكفِّك من إصبع؟ قال: خمسة. قال إياس: عجلت بالجواب. قال: لم يعجل من استيقن علمًا. فقال إياس: هذا جوابي.

دخل إياس بن معاوية الشام، وهو غلام، فقدَّم خصمًا له إلى قاضٍ، وكان خصمه شيخًا صديقًا للقاضي، فقال له القاضي: يا غلام، أَمَا تستحي تقَدِّمُ شيخًا كبيرًا؟ قال إياس: الحقّ أكبر منه، قال القاضي: اسكت، قال: فمَن ينطق بحُجّتي إذا سكتُّ؟ قال: ما أحسبك تقول حقّا حتّى تقوم من مجلسي، قال: أشهد أنّ لا إله إلّا الله، قال: ما أظنك إلَّا ظالماً، قال: ما على ظنّ القاضي خرجت من منزلي.

الأوائل

قال عثمان بن أبي شيبة في الأوائل: حدثنا الشعبي قال: أتاني عامري وأسدي وقد أخذ العامري بيد الأسدي فهو لا يفارقه، قال: فقلت له يا أخا بني عامر، إنّه قد كانت لبني أسد ستّ خصال لا أعلمها كانت لحي من العرب، كانت منهم امرأة زوّجها الله ـ عزّ وجلّ ـ نبيه عليه الصلاة والسلام، والسفير بينهما جبريل، أَفكانت هذه لقومك؟ وكان أوّل لواء عُقد في الإسلام لواء عبد الله بن جحش الأسدي، أَفكانت هذه لقومك؟ وكان أوّل مغنم قُسِّم في الإسلام مغنم عبد الله بن جحش، أَفكانت هذه لقومك؟ وكان منهم رجل يمشي بين الناس مُقنَّعًا وهو من أهل الجنة، عكاشة بن محصن الأسدي، أَفكانت هذه لقومك؟ وكان أَوَّل مَن بايع بيعة الرضوان أبو سنان عبد الله بن وهب، فقال: يا رسول الله، ابسط يدك أبايعك. قال: على ماذا؟ قال: على ما في نفسك. قال: وما في نفسي؟ قال: فتحٌ أو شهادة. قال: نعم، فبايعه. قال: فجعل الناس يبايعونه ويقولون: على بيعة أبي سنان، على بيعة أبي سنان، أَفكانت هذه لقومك؟ وكانوا سُبْع المهاجرين.

عن الشعبي أنَّ عبد الملك بن مروان قال لأيمن بن خريم: أَلَا تخرج فتقاتل معنا؟ قال: لا، إنَّ أبي وعمِّي شهدا بدرًا مع رسول الله صلى عليه وسلم، فعهدا إليّ أنْ لا أقاتل رجلًا يشهد أنْ لا إله إلَّا الله، فإنْ أتيتني ببراءة من النار، فأنا معك، قال: اذهب، فلا حاجة لنا فيك، فقال:

ولستُ بقاتلٍ رجلًا يصلِّي

على سلطان آخرَ من قريشِ

لهُ سلطانُهُ وعليَّ إثمي

معاذَ اللهِ من جهلٍ وطيشِ

أأقتلُ مسلمًا من غير شيءٍ

فلستُ بنافعي ما عِشتُ عيشي

حدثنا أبو هبيرة: أنَّ رجلًا ضاف بأعمى فعشَّاه، فلمَّا كان من الليل قام فتوضَّأ، فصلَّى ما شاء الله أنْ يصلي، ثمَّ دعا فقال: اللهم رب الأرواح الفانية، ورب الأجساد البالية، أسألك بطاعة الأرواح الراجعة إلى أجسادها، وبطاعة الأجساد البالية إلى عروقها، وأسألك بدعوتك الصادقة فيهم وكلمة الحقّ بينهم، وبشدّة سلطانك، ينتظرون قضاءك، ويرجون رحمتك، ويخافون عذابك، أسألك أنْ تجعل النور في بصري، والإخلاص في عملي، والشُّكر في قلبي أبدًا ما أبقيتني، فحفظ الأعمى هذا الدعاء، فلمَّا كان في القابلة، توضأ وصلى ما شاء الله أنْ يصلي، ثمّ رفع يديه فدعا بهذا الدعاء، فلمّا بلغ: أنْ تجعل النور في بصري، أبصر، وَرَدَّ الله إليه بصره.

عن الجاحظ قال: سأل الحَجَّاج ابن القرّية عن أضيع الأشياء، فقال: سراج في شمس، ومطر في سبخة، وبِكْر تزف إلى عِنِّين، وطعام يهيأ لشبعان، ومعروف عند غير أهله.

قال بشر الحافي: يجب عليكم يا أصحاب الحديث فيها زكاة، كما يجب على أحدكم إذا ملك مئتي درهم، خمسة دراهم، فكذلك يجب على أحدكم إذا سمع مئتي حديث أنْ يعمل منها بخمسة أحاديث، وإلَّا فانظروا إيش يكون عليكم هذا غدًا. قال البيهقي: لعلَّه أراد من الأحاديث التي وردت في الترغيب في النوافل، وأمَّا في الواجبات فيجب العمل بجميعها.

عن محمد بن المثنى السمسار، قال: كنَّا عند بشر بن الحارث، وعنده العباس بن عبد العظيم العنبري، فقال له: يا أبا نصر، أنت رجل قد قرأتَ القرآن، وكتبتَ الحديث، فلِمَ لا تتعلَّم من العربيّة ما تعرف به اللَّحن؟ قال: ومَن يعلمني يا أبا الفضل؟ قال: أنا يا أبا نصر، قال: فافعل، قال، قلْ: ضرب زيدٌ عمرًا، فقال له بشر: يا أخي ولِمَ ضربه؟ قال: يا أبا نصر، ما ضربه، وإنّما هذا تخيُّل وضعٍ، فقال بشر: هذا أوَّله كذب، لا حاجة لي فيه.

المعتصم

قال محمد بن يحيى بن حمزة الحضرمي: كتب المعتصم إليّ: بسم الله الرحمن الرحيم، من أبي إسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد، إلى محمد بن يحيى بن حمزة: سلام عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأسأله أنْ يصلّي على محمد عبده ورسوله، أمَّا بعد، فإنّي كتبتُ إلى إسحاق بن يحيى، فيما كتب إليّ به أمير المؤمنين أعزَّه الله تعالى، يعني المأمون، من امتحان القضاة في عملي، عما يقولون في القرآن، فإنْ قالوا إنَّه مخلوق، أقررتهم على أعمالهم، وتقدّمت إليهم في امتحان الشهود عن ذلك، فمَنْ أقرّ منهم سمعت شهادته، ومَن لم يقله لم تسمع منه، وإنْ لم يقل أحد من القضاة ذلك، أنْ أتقدَّم إليه في اعتزال القضاء، فاكتب إليه باسمه، وما أمر به في ذلك كتابًا، وقد نسخته لك في آخر كتابي هذا، فتعمل على حسبته، وتنتهي إلى ما حدّ أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه منه، فاعلمْ ذلك واعملْ به إنْ شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله.

هارون الرشيد

جرى بين هارون الرشيد وبين ابنة عمّه زبيدة ملاحاة في شيء، فقال هارون في عرض كلامه: أنت طالق إنْ لم أكن من أهل الجنة، ثمّ ندم، واغتمَّا جميعًا بهذه اليمين. فجمع الفقهاء وسألهم عن هذه اليمين، فلم يجد منها مخرجًا، ثمّ كتب إلى سائر البلدان أنْ يحمل إليه الفقهاء، فلما اجتمعوا عنده سألهم، فأجابوه بأجوبة مختلفة، وكان فيهم الليث بن سعد، فلم يتكلّم بشيء. فقيل له: ما لك لا تتكلَّم؟ فقال: قد سمع أمير المؤمنين قول الفقهاء، وفيه مَقْنَع. فقيل له: لو أردنا ذلك، سمعنا من فقهائنا، ولم نشخصكم من بلدانكم، فلماذا أحضرت هذا المجلس؟ فقال: يخلي لي أمير المؤمنين مجلسه إنْ أراد أنْ يسمع كلامي في ذلك. فانصرف مَن كان بحضرة أمير المؤمنين، وقيل له: تكلَّمْ. قال: يا أمير المؤمنين، أتكلَّم على الأمان، وعلى طَرْح التعمل والهيبة. قال: ذلك لك. قال: يدعو أمير المؤمنين بمصحف، فأمر به فأحضره. قال: يأخذه أمير المؤمنين فيتصفّحه، حتى يصل إلى سورة الرحمن. فأخذه وتصفَّحه حتى وصل إلى سورة الرحمن. فقال: يقرأ أمير المؤمنين، فقرأ. فلمّا بلغ {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: 46]، قال: قف يا أمير المؤمنين ههنا، فوقف. فقال: يقول أمير المؤمنين واللهِ، فاشتّد على الرشيد وقال له: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، على هذا وقع الشرط، فنكَّس رأسه، ثم قال: والله، قال: الذي لا إله إلَّا هو الرحمن الرحيم، إلى أنْ بلغ آخر اليمين، ثم قال: إنّك يا أمير المؤمنين تخاف مقام الله؟ قال هارون: إنّي أخاف مقام الله. فقال: يا أمير المؤمنين، فهي جنتان وليست بجنة واحدة، كما ذكر الله في كتابه. فسمعت التصفيق والفرح من خلف الستر. وقال هارون: أحسنت والله، بارك الله فيك، ثمّ أمر بالجوائز والخلع لليث بن سعد، وأمرتْ له زبيدة بضعف ما أمر به الرشيد.

من كتاب (لطائف المعارف)
للقاضي أبي بكر

ليلةً مات فيها خليفة، وولد فيها خليفة، واستُخلف خليفة، هي ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومئة، مات فيها الهادي، واستُخلف الرشيد، وولد المأمون.

خليفة سلّم عليه عمّه، وعمّ أبيه، وعمّ جده، هو: الرشيد، سلَّم عليه عمّه سليمان بن المنصور، ثمّ عمّ أبيه المهدي، وهو العباس بن محمد، ثمّ عمّ جده المنصور، وهو: عبد الصمد بن علي.

خليفة سلَّم عليه سبعة كلّهم ابن خليفة، هو: المتوكّل، سلَّم عليه: محمد بن الواثق، وأحمد بن المعتصم، وموسى بن المأمون، وعبد الله بن الأمين، وأبو أحمد بن الرشيد، والعباس بن الهادي، ومنصور بن المهدي.

أربعة إخوة، كلّ واحد منهم أسنّ من صاحبه بعشر سنين على الولاء، هم: طالب، وعقيل، وجعفر، وعلي، بنو أبي طالب.

أخوان تباعدَ ما بينهما في السنّ تباعدًا شديدًا: موسى بن عُبيدة الربذي الذي يُروى عنه الحديث، كان أخوه عبد الله أسنّ منه بثمانين سنة، ولا يُذكر مثاله.

أبٌ وابنٌ تقارب ما بينهما في السن تقاربًا شديدًا: عمرو بن العاص، كان بينه وبين ابنه عبد الله ثلاث عشرة سنة، ولا يُذكر مثله.

أربعة في الإسلام، وُلد من صُلب كلّ واحد منهم مئة مولود: خليفة بن بوّ السعدي، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عُمير الليثي، وجعفر بن سليمان الهاشمي.

ويُقال: إنّ المتوكّل مات عن نيّفٍ وخمسين ابنًا، ونيّف وعشرين بنتًا.

قلت: زاد ابن حبيب في المحبر: وأبو بكرة الصحابي، ويلحق بهم المتوكل الذي كان على رأس ثمان مئة.

القاضي شريح، ولي القضاء خمسًا وسبعين سنة، وعاش مئة وعشرين.

امرأة ولدها النبي ﷺ وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، هي: حفصة بنت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، أُمّها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير، وأُمّ عروة أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأُمّ محمد بن عبد الله، فاطمة بنت الحسين بن علي، وأُمّ الحسين فاطمة بنت رسول الله،، وأُمّ فاطمة بنت الحسين، أُمّ إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، وأُمّ عبد الله بن عمرو، زينب بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب.

كان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يقول: من عجائب الدنيا: العباس بن عمرو الغنوي أنفذه المُعتضِد في عشرة آلاف لمحاربة أبي سعيد الجنَّابي، فقَبَضَ عليهم أبو سعيد، فنَجَا العباس وحده، وقُتل الباقون؛ وعمرو بن الليث، مرَّ في خمسين ألفًا لمحاربة إسماعيل بن أحمد، فأُخذ هو ونجا الباقون.

مَن كان عمه وخاله خليفة: يحيى بن عروة بن الزبير، عمّه عبد الله بن الزبير، وخاله مروان بن الحكم؛ وعثمان بن عنبسة بن أبي سفيان، عمّه معاوية بن أبي سفيان، وخاله عبد الله بن الزبير.

مَن عُهد له بالخلافة، ولُقِّب بلقبها، ولم يتم له: المرتضى عيسى بن موسى بن علي، المؤتمن القاسم بن الرشيد، الناطق بالحقّ موسى بن الأمين، الرضي علي بن موسى العلوي، المرتضى منصور بن المهدي، المبارك إبراهيم بن المهدي، المؤيد إبراهيم بن المتوكل، المفوض إلى الله جعفر بن المعتمد، وأخوه الموفق أحمد، المنتصف بالله عبد الله بن المعتز، الغالب بالله أبو الفضل بن القادر، الذخيرة لدين الله ولد القائم بأمر الله.

ذو القرنين: مختلف في نبوته. ذو النورين: عثمان بن عفان[89]. ذو الشهادتين: خزيمة بن ثابت الأنصاري[90]. ذو البِجادين: عبد الله بن الحارث المزني[91]. ذو العينين: قتادة بن النعمان الأنصاري، أصيبت عينه يوم أُحُد، فردّها النبي ﷺ. ذو اللسانين: مَوْءَلة بن كشيف بن جمل بن خالدة[92]. ذو اليمينين: عمرو بن عبد عمرو بن فضلة بن خزاعة، شَهِد بدرًا، وكان لقبه ذا الشمالين، فسمَّاه النبي ﷺ ذا اليمينين، ويقال له أيضًا: ذو اليدين؛ لأنَّه كان يعمل بيديه.

قلتُ: رجَّح الحُفَّاظ أنّه غيره، فإنَّ ذا الشمالين قُتل ببدر، وذو اليدين المذكور في حديث السهو، قصته متأخرة، ويقال: إنّ اسمه الخرباق[93].

وفات صاحب (اللطائف) من هذا النمط من الصحابة: ذو الأذنين: أنس بن مالك. ذو السيفين: أبو الهيثم بن التيهان.

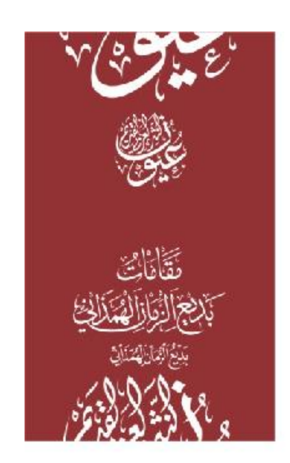
ثمّ قال صاحب اللطائف: ومن غير الصحابة: ذو الرأسين خُشَين بن لأي بن شمخ الفزاري. وذو الرئاستين: أمية بن جشم بن قيس، والفضل بن سهل. ذو النصلين: عتيبة بن الحارث بن شهاب. ذو الخليطين: خالد بن عتّاب. ذو القلبين: جميل بن معمر. ذو الثنيتين: سهل بن عمرو. ذو القرحتين: سعيد بن العاص. ذو الرمحين: حذيفة المُكنَّى أبا ربيعة، والد عمر بن أبي ربيعة. ذو القلمين: علي بن أبي سعيد بن كنداحيق؛ لأنَّه كان يتولّى الخَرَاج والجيش. ذو الحكمين: هرثمة بن أعين. ذو الوزارتين: صاعد بن مخلد. يعنون وزارة المعتمد ووزارة الموفق. ذو الكفايتين: أبو الفتح بن أبي الفضل ابن العميد. لكفايته ركن الدولة أمر الديوانين الخَرَاج والجيش. ذات النطاقين: أسماء بنت أبي بكر.


البخلاء
الجاحظ


الأذكياء
ابن الجوزي


الفرج بعد الشدة
التنوخي


كليلة ودمنة
ابن المقفع


مقامات
بديع الزمان الهمذاني
بديع الزمان الهمذاني


رحلة ابن جبير
ابن جبير


أشعار النساء
المرزباني

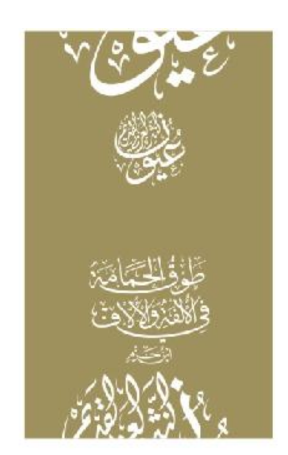

العقد الفريد
ابن عبد ربه


الإمتاع والمؤانسة
التوحيدي

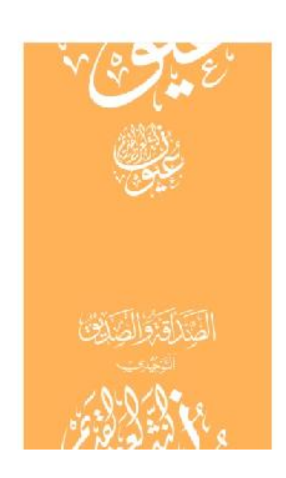

الشعر والشعراء
ابن قتيبة

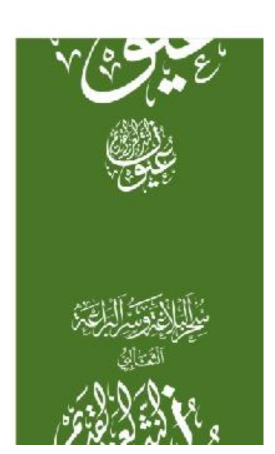

طبقات الأمم
صاعد الأندلسي

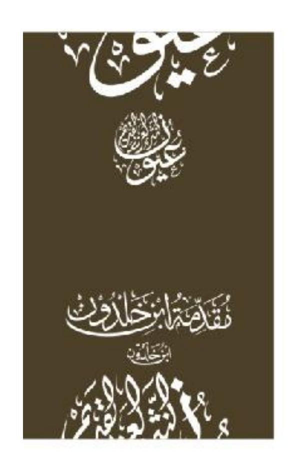

حي بن يقظان
ابن طفيل

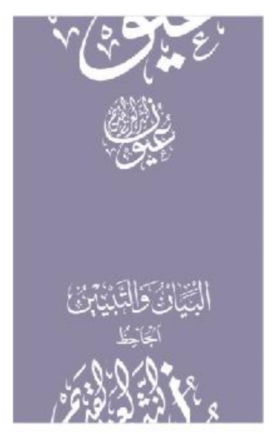

طوق الحمامة
في الألفة والألاف
ابن حزم


طبقات فحول الشعراء
ابن سلام


الصداقة والصديق
التوحيدي


سحر البلاغة وسر البراعة
الثعالبي

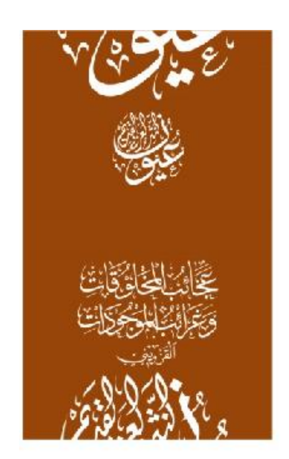

مقدمة ابن خلدون
ابن خلدون


البيان والتبيين
الجاحظ

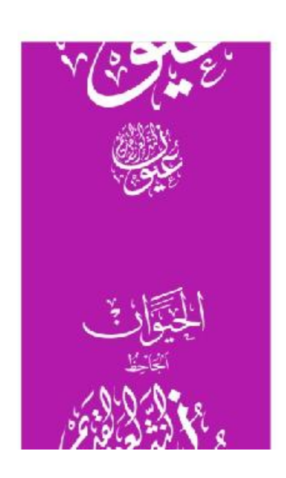

العمدة في محاسن
الشعر وآدابه ونقده
ابن رشيق


الكامل في اللغة والأدب
المبرد


زهر الآداب وثمر الألباب
الحصري


عجائب المخلوقات
وغرائب الموجودات
القزويني

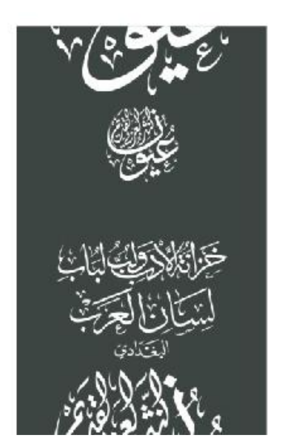

الأغاني
الأصفهاني


الحيوان
الجاحظ

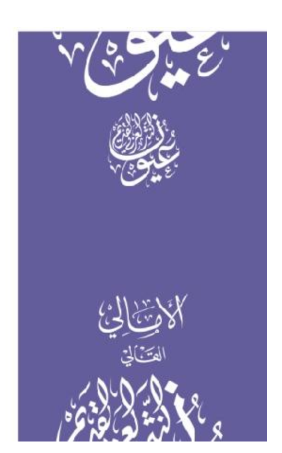

تجارب الأمم وتعاقب الهمم
ابن مسكويه


رحلة ابن فضلان
ابن فضلان


نفح الطيب
من غصن الأندلس الرطيب
المقري


خزانة الأدب ولب لباب
لسان العرب
البغدادي


يتيمة الدهر
الثعالبي


الأمالي
القالي

Notes

[1←]
الشهاب المراغي: زين الدين أبو بكر بن حسين بن عمر الأموي المراغي المصري الشافعي، نزيل المدينة، توفي بالبقيع سنة 816 هـ.

[2←]
الخشاخيش: لعله يريد الأمور الملهية؟

[3←]
الغواني: مفردها غانية، وهي المرأة الجميلة التي استغنتْ بجمالها عن الزينة.

[4←]
يقق اللمَّة: بياض الشعر.

[5←]
المَهامِز: مفردها مِهمَزَة، وهي السوط.

[6←]
العَرانين: مفردها عِرنين، وهو ما صَلُب من عَظْم الأنف حيث يكون الشَّمّ، والمقصود أنهم أعزَّة أُباة

[7←]
ذو المجاز: موضع سوق بعرفة.

[8←]
الدباء: القرْع.

[9←]
الجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، وهي إلى مكة أقرب. نزلها النبي ﷺ لما قسَّم غنائم هوازن، وله فيها مسجد، وبها آبار متقاربة.

[10←]
خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة: واسمه يزيد بن مالك بن عبد الله الجعفي، صَحِب وفد جدّه إلى النبي ﷺ، توفي سنة 80هـ.

[11←]

الترقوة: مقدم الحلق في أعلى الصدر حيثما يترقى الإنسان، وقيل خاص بالإنسان، والجمع التراقي.

[12←]
الآسية: الدعامة القوية البناء، وقيل السارية.

[13←]
وهب بن منبه الصنعاني الذماري: مؤرِّخ كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين وخاصة الإسرائيليات.

[14←]
القرّاء: الناسكون المتعبّدون، من قرأ، إذا نَسَك وتعبَّد.

[15←]
يحيى بن آدم بن سليمان كان ثقة جامعًا للعلم ثبتًا في الحديث، توفي سنة 103هـ

[16←]
يماكس: يساوم.

[17←]
يَقَع: يسبّ ويُعيب.

[18←]
اعتاص: صَعُب.

[19←]
يذبّ: يدفع ويُبعد.

[20←]
المَشَق: مشقت الفتاة: قلّ لحمُها، ورقَّت أعضاؤها.

[21←]
يثغر: تنبت أسنانه. وفي حديث إبراهيم النخعي: كانوا يحبون أن يعلموا الصبي إذا أثغر.

[22←]
الأَجَشّ: أحد الأصوات التي تصاغ منها الألحان.

[23←]
خَلْف: محبس الدَّوابّ.

[24←]
يَشْغَب: الشَّغَب: الصياح من غير تعب.

[25←]

عبد الرزاق بن همام الصنعاني: من حفَّاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء، له كتب منها: (الجامع الكبير) في الحديث، وكتاب (تفسير القرآن) و(المصنَّف في الحديث)، توفي سنة 211هـ.

[26←]
شريح القاضي: أبو أمية شريح بن الحارث بن قيس الكندي، من كبار التابعين بالكوفة، توفي سنة 78هـ.

[27←]
يقده: يقتص منه.

[28←]
الجُمّارة: قلب النخلة وشحمتها.

[29←]
من اللغو، وهو الحديث الذي لا فائدة فيه.

[30←]
الخُوان: مرتفعٌ يوضع عليه الطعام وأدواته (طاولة).

[31←]
جَام الزجاج: إناء من الزجاج.

[32←]
الحُوب: الإثم.

[33←]
عمر بن هارون: عالِم بالقراءات، واسع الرواية للحديث، توفي سنة 194هـ.

[34←]
ابن جريج المكّي: فقيه الحرم المكّي، كان إمام أهل الحجاز في عصره، وهو أوّل مَن صنَّف التصانيف في العِلم بمكة، توفي سنة 150هـ.

[35←]
بلخ: مدينة مشهورة بخراسان.

[36←]
الحرض: رماد إذا أُحرق ورش عليه الماء انعقد وصار كالصابون، تنظّف به الأيدي والملابس.

[37←]
أحمد بن طولون: صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، كان شجاعا جوادا حسن السيرة، توفي سنة 270 هـ

[38←]
معن بن زائدة: من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء الحلماء، توفي سنة 151هـ.

[39←]
بكَلْكَله: بثقله.

[40←]
لا جَرَمَ: لا بدَّ، لا محالة.

[41←]
سفيان بن عيينة: مُحدِّث الحرم، توفي سنة 198هـ.

[42←]
يحيى بن أكثم: قاضٍ رفيع القَدْر، من نبلاء الفقهاء، توفي بالمدينة سنة 242هـ.

[43←]
عتاب بن أُسيد: أسلم يوم الفتح، وكان عمره حين استعمله النبي نيفًا وعشرين سنة، توفي سنة 13هـ.

[44←]
معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي، أمّره النبي ﷺ على اليمن وهو ابن إحدى وعشرين سنة، توفي سنة 17 أو 18هـ.

[45←]
كعب بن سور: قاضي البصرة، شهد موقعة الجمل مع عائشة، فأتاه سهم غرب فقتله سنة 36هـ.

[46←]
فُواق: الفترة الزمنية الفاصلة بين الحلبة الأولى والثانية.

[47←]
المسبحي: صاحب التاريخ المشهور، وهو: أخبار مصر ومن حلَّها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء، توفي سنة 420هـ.

[48←]
ابن أبي ليلى: تولى القضاء بالكوفة، جدّه أبو ليلى من الصحابة، توفي سنة 148هـ.

[49←]
الوداعي: علي بن المظفّر الكِنْدي، أديب متفنّن شاعر، عارف بالحديث والقراءات، له (التذكرة الكِنْدية) خمسون جزءًا، أدب وأخبار وعلوم، توفي سنة 776هـ.

[50←]
كمال الدين بن يونس: فيلسوف علّامة بالرياضيات والحكمة والأصول، عارف بالموسيقى والأدب والسِّيَر، توفي بالموصل سنة 639هـ.

[51←]

الصاحب: ابن شكر: وزير مصري من الدهاة، تفقَّه في القاهرة، وألَّف كتابًا في الفقه على مذهب مالك.

[52←]
قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تُعدّ في أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام.

[53←]
أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام، بين قيسارية ويافا.

[54←]
أسماء بنت عميس: صحابية كان لها شأن، أسلمت قبل دخول النبي صلى الله عليهم وسلم دار الأرقم بمكة، وهاجرت إلى المدينة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، وأنجبت له عبد الله ومحمدًا وعوفًا، ثم قُتل جعفر شهيدًا في وقعة مؤتة سنة ثمانٍ للهجرة، فتزوجها أبو بكر الصديق، فأنجبت له محمدًا، وتوفي أبو بكر عنها، فتزوجها علي بن أبي طالب، فأنجبت له يحيى وعونًا، وُصفت بمهاجرة الهجرتين، ومُصلية القبلتين، توفيت سنة 40هـ.

[55←]
السُّحر: موضع الرئة، والنّحر: أعلى الصدر.

[56←]
ابن الوردي: مؤرِّخ توفي سنة 749هـ.

[57←]
الصوارم: السيوف القاطعة.

[58←]
الوَدَق: نقط الدم.

[59←]
الصدأ.

[60←]
المكس: نقص الثمن، والضريبة يأخذها المكَّاس ممَن يدخل البلد من التجار.

[61←]
غرار السيف: حدّه.

[62←]
أقضب: أقضبت الأرض: أنبتت القضيب وهو الشجر

[63←]
الهجوع: السكينة والنوم.

[64←]

السِّرب: الطريق والوجهة.

[65←]

قرابغا: نائب حلب قرا باشا.

[66←]

المحو عين الإثبات: أي أنّه زوّر فمحا 9 من 99، فأصبحت 9.

[67←]

زبدة: مدينة بالروم من فتوح أبي عبيدة.

[68←]

فاس: مدينة في المغرب.

[69←]

دانية: مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقًا.

[70←]

في أمه: أي كتابه الأمّ.

[71←]

الخَتْل: الغدر والخداع.

[72←]

الدَّغَل: الفساد.

[73←]

الزغلي: نسبة الزَّغَل، وهو الغش.

[74←]

الفَدْم: الثقيل الفهم العييّ.

[75←]

الأدوان: جمع دُون.

[76←]

شيس: ناحية بأذربيجان من فتوح المغيرة بن شعبة.

[77←]

مطيلسًا: مبهمًا، والطيالسة: جمع طيلسان أو الطالسان، ضرب من الأوشحة يلبس على الكتف.

[78←]

القرى: طعام الضيف.

[79←]
جمري: لعله منسوب إلى جمرة النار، أو الحصاة يستنجى بها، أو من الجمر، أي: السرعة، وكلها من معاني الهجاء.

[80←]
جمرته: غضبه.

[81←]
الجلب: ما جلب من إبل وغنم ومتاع التجارة.

[82←]
ابن أبي الدم: شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم، كان إمامًا في مذهب الشافعي، توفي سنة 642هـ

[83←]
المهفهف: الضَّامر البطن، الدقيق الخَصر.

[84←]
شرقي بن القطامي: عالم بالأدب والنسب، من أهل الكوفة، توفي سنة 155هـ.

[85←]
ابن ماء السماء: رأس الشُّعراء في الدولة العامرية بالأندلس، توفي بمالقة سنة 422هـ.

[86←]
يُردّد الإسكافي كلامًا يخلو من المعنى، سُخرية من تقعّر النحوي.

[87←]
الدستور هنا: الرخصة والاستئذان.

[88←]
العرصات: الساحات.

[89←]
سُمّي ذا النورين لأنّه تزوّج بنتي الرسول ، رقيَّة، فلمّا توفيت، زوَّجه الرسول أم كلثوم، ولا يعرف أحد تزوج بنتي نبي غيره.

[90←]
خزيمة بن ثابت الأنصاري: صحابي، لُقب بذي الشهادتين لأنّ شهادته جعلت كشهادة رجلين.

[91←]
سُمّي بذلك لأنّه حين أراد السير إلى النبي ﷺ ، قطعت أُمّه بجادًا لها كساء باثنين، فأتزر بواحد وارتدى بآخر.

[92←]

كان يدعى ذا اللسانين من فصاحته وبلاغته.

[93←]
الخرباق بن عمرو: صاحبي من بني سليم.